اللطلاطة

عبد الإله السباهي

تم اهداء الكتاب لموقع
موسوعة العيون المعرفية ومالك الموقع من قبل مؤلف الكتاب
عبد الإله سباهي
في زيارته لهولندا مطلع عام 2013

الرفع الإلكتروني
حسام هشام العيداني

حقوق النشر للكتاب الإلكتروني محفوظة لموقع
موسوعة العيون المعرفية

الفهرس

الجزء الأول: اللطلاطة 8
الجزء الثاني: حيهن 76
الجزء الثالث: أم عين 98
الجزء الرابع: تفاح الدورة 132
الجزء الخامس: بستان نديم 164

اللطلاطة
تأليف: عبد الإله السباهي
الإخراج الفني: بنان قسطنطين
الطبعة الأولى 2011، 1000 نسخة

دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع
سورية – دمشق – شارع مسلم البارودي
ص.ب 5175 - هاتف 2226207 – فاكس 2234160
البريد الالكتروني: annameer@scs-net.org
زوروا موقعنا http://www.alnameer.com
للمراسلة: ba_kastantin@hotmail.com
بريد المؤلف: Abuklam96@yahoo.com

اللطلاطـــــــة

عبد الإله السباهي

قصة من خمسة أجزاء

الجزء الأول – اللطلاطة

الجزء الثاني - حيهن

الجزء الثالث - أم عين

الجزء الرابع – تفاح الدورة

الجزء الخامس – بستان نديم

الدانمارك 2011

الجزء الأول
اللطلاطة

آذار هو شهر الربيع والأعراس ونحن في غمرة أفراحنا باستقبال مولودة جديدة. رن جرس الباب بقوة، كنت منهمكا في زرع فسيلة نخل في الحديقة الخلفية جاءتني هدية، فلم أسمع الطرق على الباب. استمر الجرس يرن بقوة أكثر هذه المرة، فخرج الأطفال ليستعلموا عن الطارق، وإذا بسيارة رباعية الدفع ومجموعة من الرجال تسأل عن نديم.

ناداه ابنه:

- بابا هناك في الباب من يسأل عنك.

خرجت لهم بالبنطلون الشورت والطين لا يزال عالقا بيدي.

لم أتعرف على الزوار، ولكن رغم ذلك دعوتهم لتناول فنجان من القهوة على عادتي في استقبالي للضيوف.

أجابني أحدهم بتهكم:

- نفضل أن تتفضل أنت بمرافقتنا.

أدركت أن الأمر خطير هذه المرة فاستأذنتهم بارتداء ملابسي

وغسل يديّ.

لبست ملابسي على عجل وودعت زوجتي بعد أن أوصيتها بالصبر واستنفار المعارف قدر الإمكان لمد يد المساعدة، ولم أجد الوقت لأرد على استفسارات زوجتي والتي كانت طريحة الفراش بعد ولادة صعبة.

دخلت السيارة ووجدت نفسي بين مجموعة من الرجال شديدي المراس.

عصبوا عيني قبل أن تنطلق السيارة بعصبة من القماش السميك أحالت النور إلى ظلام دامس، وعندها بدأ التحقيق معي والسيارة منطلقة تشق طريقها بسرعة إلى جهة مجهولة.

- هل أنت نديم؟

- نعم أنا هو

- هل أنت مهندس؟

- نعم أنا كذلك.

- هل تربطك علاقة بقاسم؟

- نعم إنه أخي.

- هل تعرف فلاناً؟

- كلا لا أعرفه.

- هل.....

- نعم

- هل.....

- كلا

واستمر التحقيق على هذا المنوال إلى أن توقفت السيارة بعد مدة.

أنزلوني من السيارة ولا أزال معصوب العينين يقودني أحدهم إلى قبو فتعثرت بسلّمه الضيق.

أجلسوني هناك على كرسي من الخشب القاسي ثم أعاد عليّ المحقق ذات الأسئلة التي أجبت عليها منذ قليل في السيارة وأنا لا أزال معصوب العينين.

استمر هذا الطقس المرعب لساعات أترك خلالها أحيانا وأنا لا أدري ماذا يدور حولي، وأين أنا؟ وما هي التهمة التي ستوجه لي؟

تركت الأطفال مرعوبين يتصارخون وأمهم لا تستطيع الحركة، ترى كيف هم الان؟ وكيف راحت تتصرف زوجتي وهي بهذه الحال؟

أعادوني إلى البيت بعد ساعات بذات الطريقة معصوب العينين، وهناك أزاحوا العصبة عن عيني ولكن الظلام ظل مطبقاً عليها، فلم

أك أعرف أن الليل قد انتصف.

دفعوني من السيارة وكأنهم يرمون بكيس من سقط المتاع.

* * * * *

لم تكن الهجرة هواية للعراقيين يوما، ولكن بعد أن قصمت ظهر العراقيين كل تلك الحروب العبثية. فالحرب العراقية الإيرانية التهمت ما يزيد على نصف مليون إنسان، وراحت الملايين الأخرى من الشباب والأطفال تتساقط في حرب الكويت وحروب بوش الأب وبوش الابن، واستمر الموت يلاحق العراقيين حتى هذه الساعة.

إن ملاحقات الشرطة السرية وطرقهم على باب بيتنا لم يتوقف. طفح الكيل فلم نعد ننام الليل من الترقب والخوف.

أما مطاردات الجيش الشعبي فقد قلب حياتنا جحيما حقا، ولم أعد أحتمل معها الحياة في العراق. لقد تحولت حياتنا إلى عقاب لا نهاية له.

لا تضحك عزيزي القارئ، ولا تذكرني بواجبات الفرد تجاه وطنه. إنه درس قد تعلمناه وعرفناه منذ الصغر.

لم أشعر إن الوطن غير رقعة أرض خط حدودها غيرنا وتعاقبت عليها حكومات ظالمة تحكمنا بالحديد والنار.

لكن الزمن علمنا أيضا، متى تكون خدمة الوطن واجب ومتى يتحول هذا الواجب إلى خدمة الحاكم المستبد الذي لا يهمه الوطن ومن يعيش على ترابه.

لا أعرف قارئي الكريم ما ستكون أولوياتك في الحياة وأنت ملزم بإعالة أسرة كبيرة، وقد وهنت صحتك من كثرة المشارط الطبية التي راحت ترسم خرائط على بطنك، والصواريخ تهد دارك فوق رأسك، فلا تجد سقفاً يستر أطفالك، وأنت في ذروة المحنة تستلم كتاب من المنظمة الحزبية يذكرك بوطنيتك ويدعوك فيه للالتحاق بأحد قواطع الجيش الشعبي!

جاري وصديقي أبو محمد في نهاية الستينيات من العمر، بكَّر بالخروج صباح يوم الجمعة الماضية، ليشتري الفطار البغدادي المميز (كاهي وقيمر) من أفران المنصور المجاورة، ولم يعد أبو محمد بعدها فقد التقطته المفارز الحزبية المكلفة بجمع المقاتلين لقاطع الجيش الشعبي، وزجوا به في حافلة غصت بالرجال من مختلف الأعمار، وبعضهم لا يزال في ملابس النوم، وظل صحن القيمر بيده، أما الكاهي فلم يلحق بشراءه، وظلت عائلته تنتظر عودته وإلى يومنا هذا.

ثم تحاججني بالوطنية. هل تركتم فيها وطنية؟

جاءني الكتاب المذكور بالفعل وبهذه الصيغة:

(الجيش الشعبي صيغة رسمية تعاونها الصيغ الجماهيرية. كل مواطن في العمر والمهنة مشمول بالجيش الشعبي فهو واجب وطني لا مجال لأن يرفض تأديته. «من حديث الرفيق قائد...».

المواطن.....

العنوان....

تحية طيبة:

إن المشاركة في قواطع الجيش الشعبي تعتبر إحدى الممارسات الصادرة المعبرة عن حب الوطن والدفاع عنه وعن المكتسبات العظيمة التي تحققت منذ ثورة 17 – 30 تموز تحت قيادة القائد الرمز..... حفظه الله ورعاه ولكونكم من المشمولين بحركة قاطع أبو جعفر المنصور الذي سيدخل المعسكر التدريبي في.....

نرجو حضوركم إلى مقر المنصور منظمة حي دراغ يوم الأربعاء المصادف..... في الساعة السادسة مساء للوقوف على رأيكم بخصوص المشاركة ودمتم.

ملاحظة:

في حالة حضوركم ومناقشتكم حول موضوع المشاركة فيعتبر الموافقة على المشاركة في القاطع المذكور.

منظمة حي دراغ).

أما لماذا العراق وشعبه الخيِّر يلاقي كل تلك المصائب ومنذ القدم، فلا أحد يجيب، ولا ربّ يستجيب.

أجبرونا على الهرب من أرض أجدادنا، ولكن لم يجرأ أحد منا على قطع ذلك الحبل السري الذي يشدنا لأرض قاحلة وغبار خانق وأناس يأكلون بعضهم في أيام المجاعة.

هكذا بدأ نديم بسرد قصته «اللطلاطة».

ذات يوم خريفي والحر لا يزال يعكر المزاج, قررت الذهاب إلى مرتع طفولتي لإلقاء تحية الوداع عليه، بعد أن عزمت على ترك العراق لأبحث عن وطن جديد يمكنني العيش فيه بعيدا عن الحروب ومطاردات البوليس السري في أرض الله الواسعة.

قررت أن أودع قطعة أرض التصقت على شغاف القلب وأظنها ستظل معه حيث ما حل به الدهر.

أصر صديقي سيف الدين على مرافقتي في رحلة الوداع هذه، بعد أن كثر الحديث بيننا عن قرية (اللطلاطة).

تلك القرية الوادعة التي هي أول وآخر قرية مندائية عاش سكانها بهدوء ومحبة على ضفاف دجلة في بداية القرن الماضي، والتي ظلت في ذاكرتي وذاكرة العديد من المندائيين كجنة أبينا آدم

التي لم يرها بعده أحد من ذريته.

كذلك ظنها صديقي سيف الدين جنة، فصغر الفرات في عينيه، وراح أنين نواعير عانة التي ترعرع بينها يتلاشى أمام لطلاطتي هذه.

لم يحتمل رفيق سفري هواء ميسان الرطب فأغلق نوافذ السيارة وشغل تبريدها الذي ظلت تئن منه مفاصلي منذ أن غادرنا مدينة العمارة، و رغم ذلك ظل سيف الدين يتذمر طيلة الساعة التي قضيناها للوصول إلى قلعة صالح.

ربما كان منزعجا من التعليق الذي سمعه من إحداهن في دار استراحة العمارة حيث غمزت لصاحبتها أثناء مرورها بنا ونحن جالسون نحتسي قنينة من الجعة المبردة، والسيجار الكوبي قد أحتل الركن الشمالي من فمه، وراح يعطر المكان بدخان خفيف:

- (ولج شوفي مو هذا اليطلع بالتلفزيون؟)

أكدت صاحبتها: (طبعا هوه، عرفته من النظارة السودة لكن شنو هذا الي يعلس بيه بحلقه، جريدة نخل؟) وتخطين مائدتنا وهن يقهقهن على غير عادة نساء العمارة المحتشمات.

لم يفهم صاحبي حينها ماذا قالت تلك السيدة فلهجتنا العربية في الجنوب عصية على الفهم لغير أهلها، فظن أن السيدتين معجبتان به،

فابتسم لهن وراح ينفش ريشه وكأنه طاووس في موسم التزاوج، ولكن عندما غادرنا مدينة العمارة ونحن في الطريق سألني:

- ماذا قالت تلك المرأة؟

شرحت له معنى كلامها:

(قالت تلك السيدة إنك تظهر في التلفزيون وربما خلطت بينك وبين سيد مكاوي وتسأل لماذا تمضغ قطعة من سعف النخيل في فمك)، فغاص سيف الدين في قعر مقعده ولم يعلق بكلمة بعدها.

لقد تأنق سيف الدين على عادته ولبس نظاراته ماركة (ريبان) وترك بعضا من أزرار قميصه تكشف عن سلسال ذهبي اختفى نصفه في شعر صدره الكث فشعاره دائما «كن جاهزا حيثما خرجت» (اليمشي رزقه وياه).

- حتى هنا يا سيف الدين؟

أظن صاحبي قد ندم على مرافقتي في هذه السفرة المتعبة، كان يؤمل نفسه بمشاهدة بساتين خضراء قطوفها دانية وحور العين في انتظاره على جانبي الطريق الموصلة للجنة، سرح به الخيال وهو يؤمل نفسه (بسبعين امرأة من نساء زمانه واثنتين من حور العين[1]

---

[1] حديث شريف أخرجه ابن ماجه.

كما وعد ربك المؤمن الصالح في جنان الخلد.

وإذا به بعد كل هذا التأنق يمضغ (جريدة نخل!).

* * * * *

الطريق التي شقت بساتين النخيل بين مدينة العمارة ومدينة قلعة صالح أصبحت عادية في نظر صاحبي. لا يميزها عن غيرها غير بائعات السمك اللواتي توشحن بخمورهن التي تحول لونها الأسود إلى لون الطريق الأملح، وهن يعرضن عليه من حين لآخر السمك الذي يصطاده الرجال من الأهوار في سلال نسجت من سعف النخيل تجمع فوقها الذباب.

أو ربما ملّ سيف الدين من سماع أغاني ناصر حكيم وداخل حسن والتي لم تتوقف طيلة السفرة وحن «لجوبي الغربية» فراح يتأفف؟

ولكن المرجح والأكيد أنه ظل منزعجا من تليق تلك السيدة.

راحت المرسيدس الحمراء والتي أهداها (السيد الرئيس) إلى أحد أتباعه فباعها هذا التابع بسعر بخس، وأصبحت من نصيبي، راحت تشق طريقا ترابية بين بساتين النخيل الموصلة من قلعة صالح إلى اللطلاطة بصعوبة.

كانت السيارة رغم ثقلها تهز راكبيها وهم أنا وسيف الدين بعنف

فالطريق إلى اللطلاطة غير معدة لمرور السيارات.

بعد أن اجتزنا مسافة بسيطة داخل البساتين لا تتجاوز كيلومتراً واحداً فوق السدة الترابية المقامة حديثا، لفت انتباه سيف الدين شاب يرتدي الملابس العسكرية وشابة تسير بجانبه تلفلفت بعباءة سوداء دون أن تستر صدرها الناهد أو تكتم ضحكتها الغنجة، وقد تمسك الشاب بمعصم رفيقته بقوة وهم يسيرون باتجاه اللطلاطة، عندها فقط ضحك سيف الدين معلقا (لك هاي بشارة خير سوف نصل أوربا بإذنه تعالى!) وراح يتطلع في المرآة التي أمامه ليتأكد من كونه جاهزا للمغامرات القادمة!

انتهت بساتين النخل ولم يعد هناك درب سالك للسيارة فأوقفت السيارة وترجلنا منها بعد أن أطفأت محركها الذي أخذ يئن تحت وطأة الجهد المبذول بسبب وعورة الطريق، فعجلات السيارة كانت تغوص في التراب وتراوح في مكانها من مسافة لأخرى.

لا أعرف من أين خرجت لنا مجموعة من الشباب يرتدون (دشاديش) سمر فتجمعوا حولنا وراحوا يتفحصوننا بنظرات عدائية وكأننا نزلنا عليهم من كوكب آخر.

كان أحدهم يحمل بين يديه كتاب(الكافي) وهو من الكتب التي تدرس في الحوزة على ما أظن، وآخر بيده عصا في رأسها كرة من

القار (مكوار) لا تميزها كثيرا عن لون وجهه.

لم أتعرف في البداية على المكان الذي توقفنا عنده، هل يعقل أن هذه البقعة الخالية من العمران والزرع هي اللطلاطة التي ترعرعت فيها؟

- أهذه جنتكم أيها المندائيون؟ تساءل صاحبي:

هل كل هذا العناء يا نديم لتودع هذه الأرض التي أزهر فيها الشوك بدل الورد؟

لم أرد على تعليق صديقي فقد كنت أعيش حينها لحظة شك وكأنني في عالم ثانٍ مذهولا مما أرى.

رحت أسأل نفسي: هل تهت يا نديم بعد هذه السنين الطويلة عن دروب اللطلاطة؟

لكن تأكد ظني إنها هي عندما رأيت قبرا كتب على شاهده المقطوع من المرمر الأبيض باللغتين العربية والمندائية، (هذا قبر الشيخ يحيى الشيخ زهرون).

أهذا كل ما تبقى منك يا بيوت اللطلاطة بعدما كنت عامرة بالأحباب ذات يوم؟

أخذت أدقق النظر وأقيس المسافات، فالقبر كان وسط المندي سابقا كما أتذكره يوم دفن فيه الشيخ الجليل، إذا لابد أن يكون بيت

سلمان هنا حيث أقف، فرحت أتفحص النخيل الذي عانق السماء، والذي عشنا تحت ظلاله ردحا من الزمن عندما كان سعفه في متناول اليد.

سألت الشاب المتطفل صاحب (المكوار) والذي ظل يرمقنا بكره عن أسماء تلك الأصناف من النخيل:

هل هذه (ديرية) أجاب نعم؟ وتلك كذلك، وتلك (حلاوية) وهذه (شكرة) وتلك (بريم) وهذه (جبجاب) ورحت أعدد أسماء النخل الأربعة والعشرين والتي كانت بستانا عامرا ذات يوم دون أن أخطئ باسم واحدة منها.

تحير الشاب في ذلك، فموسم جني التمر قد انقضى فكيف تسنى لهذا (الأفندي) راكب المرسيدس والذي جاء ليصور فلما ربما عن قلعة صالح من معرفة أصناف النخيل دون أن يخطا بأي منها؟

نفذ صبر الشاب فسألني بخشونة: من أنت؟ وكيف عرفت أصناف النخيل؟

أجبته بعد أن تدافع الشباب رفاقه للوقوف أمام عدسة كإمرة الفيديو ليظهروا في (فيلم اللطلاطة!) الذي كان يصوره سيف الدين:

- هذه النخلات أيها الشاب كانت عشقنا ذات يوم وكان بيتنا هنا حيث أقف أمامك الآن، وطفولتي قضيتها بين تلك الأشجار وربما

(هناديل)(*) التمر التي كنت أعلقها على سعفها لا تزال معلقة في مكانها.

انتفض صاحبنا عند سماع ذلك، وراح يقسم «بالعباس» أنه قد اشترى تلك النخلات من أبني!

أي أبن يا هذا الذي اشتريت منه ملكا صرفا مسجلاً بأسمائنا لدى الدولة في دوائر السجل العقاري؟

ألا يمكنكم الترحم على من زرع ذلك البستان وتركه لكم لتنعموا بخيراته مجانا؟ ألا تضيفونا بصحن من تمره الشهي بدل ذلك؟

تركنا بقايا اللطلاطة وعدنا أدراجنا بعد أن التقطنا بعض الصور لما تبقى منها وفي طريق العودة التقط سيف الدين صورة للعاشقين اللذين تمهلا في طريق العودة علنا نبتعد عنهم ويخلو لهم الجو.

أصر صاحبي أن أحدثه بالتفصيل عن هذه اللطلاطة، وعن سلمان بانيها وسر تعلقي الشديد ببستان الشوك هذا!

بعد إصرار رفيقي، وقضاء للوقت الذي أصبح ثقيلا بسبب الحزن الذي جثم على صدري وأنا أرى حتى لطلاطتي درست، وشملها التخريب في وطن أسسنا دعائمه وأحببناه وضحينا من أجله!

(*) هندال كلمة محلية الاستعمال وهي عبارة عن حقيبة صغيرة تحاك من خوص النخيل يتلاك الأطفال فيها التمر الناضج ويعلقونها فوق النخيل ليتمتعوا به بعد وسم الجني.

رحت أسرد الأحداث لرفيقي في طريق عودتنا وبالتفصيل الممل فاجترار الذكريات كان يخفف من حزني:

- أسرد عليك عزيزي سيف الدين قصة سلمان بحيادية، فلست منحازا إلى أي فصل من فصولها، كل ما في الأمر، هو أني أقرب إلى أحداثها من الآخرين، فقد كنت منفعلا مع أداء أبطالها إلى حد الشهقة، ولكنني ومع الأسف لم أستطع تبديل الواقع، إنه القدر.

وكما تعلم أن الأقدار تدون بعد الأحداث دائما، لذا أصبح من المتعارف عليه أن الأقدار صادقة تماما ولا تبديل لها إلا بإرادة الله!

قدر سلمان يا سيدي إنه ولد في نهاية القرن التاسع عشر كما يروى. وهكذا أضيف اسم سلمان إلى الملايين الثلاثة التي كانت مجبرة على العيش في بلد اسمه العراق.

لا يغرك اسم العراق، وألقابه الرنانة، مثل أرض السواد، وبلاد ما بين النهرين، مهد الحضارات، أو موطن الخلافة وغيرها. ولا يأخذنك الزهو كونك من أبناءه، فهو لم يكن إلا بقعة أرض بائسة تعاقب عليها المحتلون ومنذ القدم.

ولسوء طالع سلمان، إنه ولد وعاش ربما في أسوأ حقبة من تاريخ رقعة الأرض تلك.

كانت الزراعة في تلك الأيام تشكل المورد الأساسي الذي يعتمد

عليه الناس في قوت يومهم.

بالرغم من كثرة المساحات الزراعية الواسعة، والأرض الخصبة التي ترويها أنهار خالدة، كان كل ما يزرع في تلك الأرض من حنطة وشعير ورّز وغيرها من المحاصيل، لا تشكل إلا جزءا صغيرا جدا لا يتعدى سبع الأراضي الخصبة القابلة للزراعة في أحسن الأحوال.

نصف محصول الزرع يذهب إلى المستعمرين العثمانيين، على شكل ضرائب وإتاوات، ثم يتربع الإقطاعيون، مفترشين الأرض لتقاسم النصف الثاني، فيأخذوا ما استطاعوا أخذه من محصول تلك السنة، الذي سقي بعرق الفلاحين، هذا إذا سلم المحصول من غزو أسراب الجراد، وبعد ذلك، يرموا بما تبقى من الفتات إلى الملايين الجائعة، والتي كان الموت يلاحقها دائما على شكل جوع وطاعون وجدري وكوليرا، أو على شكل فيضانات لا تنتهي، وإلى آخر وسائل الموت الجماعي التي قسمها الله لعباده الفقراء الصالحين.

تعب (إله) الموت من لهوه في قتل الآلاف عبر فيضانه المرعب عام مولد سلمان، والذي لم يقتصر فيه على قتل البشر، وإنما قضى على المزارع والبساتين،

فبعد أن قتل هذا السفاح ألآلاف من البشر، وأباد مليوني نخلة،

راح يأخذ قسطا من الراحة[1].

في هذه الفسحة من الزمن الصعب، يجد سلمان فرصته في الولوج إلى هذا العالم في قرية نائية في جنوب العراق، ليزيد فيه عدد البائسين بائسا آخر.

لا أعرف كيف استطاع مخرج هذه الدراما أن يأتي بسلمان في تلك الفترة الرهيبة بالذات؟

ولم أجد تفسيرا مقنعا كذلك في إعطائه فرصة العيش والعمل، في الوقت الذي لم يجد فيه أغلب الناس ما يقتاتون به، لا بل حتى علمه القراءة والكتابة، ولم يكن حينها في عموم العراق سوى 160 مدرسة، بما فيها المدارس الخاصة والتي استأثرت بها مدينة بغداد والمدن الكبرى وكانت لأولاد الأثرياء من سكنتها فقط.

شب سلمان طويل القامة، قوي البنية، شديد السمرة ككل العراقيين الأصلاء. وعندما أصبح رجلا غطت وجهه لحية كثة[*] لم تبقي من معالم ذلك الوجه سوى عيون حادة الذكاء وأنف تخطى الحجم المعتاد.

---

[1] لعنة الله على ملك الموت هذا والذي سيظهر كخروف أملح ويذبح بين الجنة والنار، فلا يموت أهل الجنة بعدها ولا أهل النار فالكل سيظلون خالدين فيها. «أخرجه ابن ماجه».

[*] من عادة الطائفة المندائية إطلاق شعر الوجه والرأس وعدم قصه أبدا.

تربية سلمان الدينية كانت صارمة. فكان ينزل النهر كل يوم في الصباح الباكر ليتوضأ ويقيم صلاته ويغمر جسمه في ماء النهر ليرتمس إن كان قد أجنب ككل الشباب، لم يمنعه برد الشتاء القارص المغري بنوم الضحى من ذلك.(**)

ورغم هذا الورع وهذا الزهد، كان سلمان شاعرا غزلا، وفنانا لم يجد فرصته في الظهور والشهرة في ذلك الزمن الصعب.

اقترن سلمان بفتاة اسمها حيهن. وكانت حيهن الابنة الوحيدة لرجل الدين الأكبر في مدينة عربية في جنوب غرب إيران، كان اسمها ومنذ القدم (الحويزة)، قبل أن يبدل الفرس اسمها إلى (دشت ميشان).

لم يكن زواجه سهلا من حيهن. فمن هو سلمان، هذا الرجل المغمور الذي جاء يطلب يد ابنة رئيس كهنتنا؟.

ولكن الزواج قسمة ونصيب كما يقال، ثم أن الوفد الذي تشفع لسلمان كان من أكابر هذه الطائفة فتم زواجه من تلك المدللة، وكان

(**) يسكن مناطق جنوب العراق بضعة الآف من البشر يقال أنهم بقايا السومريين سكنة العراق الأوائل. يدينون بالديانة المندائية وهي بقايا دين توحيدي قديم ويتكلمون اللغة المندائية وهي آرامية قديمة أيضا.عرفوا بتزمتهم الديني وحرصهم المبالغ فيه على نظافة النفس ونظافة الأبدان. وهم موحدون إلى حد المغالاة. وأهم طقوسهم الارتماس في مياه الأنهر الجارية غسلا للذنوب مهما صغرت.– الكاتب –

ذلك في بداية القرن العشرين،

لا أحد يعرف بالضبط كم كانت أعمار العروسين عند زفافهما ولكن ابنتهم البكر رأت النور عام 1917، فإذا أخذنا بالاعتبار أن الزيجات كانت تتم مبكرا في تلك الأيام فإن حيهن ربما ولدت في مطلع القرن العشرين وقد يكبرها سلمان ببضع سنين.

كان زواج سلمان بعيدا جدا عن غزله ومشاعره المرهفة، وكأنه أراد بتلك الزيجة أن يضمن له وسيلة مؤكدة للتقرب فيها إلى رب العالمين وضمان مقعد له في مدرج جنانه.

لم ينقطع دعاء أبي العروس بالخير لسلمان، ودعاء وكلاء الله لا يخيب أبدا! ولكن دون جدوى هذه المرة على ما يبدو، فسلمان عاش فقيرا، ومات فقيرا وظل يبحث عن لقمة عيش شاردة.

أخذت حيهن تنجب له الأطفال بفترات متباعدة. فقد كانت دائمة الخصام معه. لفقر حاله قبل كل شيء، ثم لترحله الدائم سعيا وراء الرزق، والذي ظل شحيحا على الرغم من تعدد مواهب الرجل وسعيه ومثابرته وهكذا رزق بقاسم، وعبد الرزاق، وصلاح، وأنا نديم، وأخت لنا تكبرنا جميعا.

تميز سلمان على أقرانه في إجادته الصنعة، فكان صائغا فنانا للحلي الذهبية والفضية. ذلك الفن الذي كان السبب ربما، وراء ذلك

الفقر الدائم.

يشاع أن سلمان كان يتأنى في صياغة الحلي لتأتي رائعة الجمال، كاملة الصنعة، فينفق الوقت الطويل لأجل ذلك الكمال، ولكن الأجر الذي يتقاضاه عن عمله كان قليلا، ولا يختلف عن ما يتقاضاه غيره، فالفن كان يعّد رفاها في ذلك الزمان. ورغم ذلك ظل سلمان مخلصا لفنه الذي لم يجنِ منه سوى خصام حيهن، والتي كانت تهرع إلى بيت أبيها كلما وجدت سببا للخصام، وما أكثر تلك الأسباب التي كانت تجدها تلك المرأة المدللة في عيشها مع سلمان.

ظلت حرفة الصياغة كما كانت من قبل آلاف السنين ولم تتطور إلا في أيامنا هذه.(*)

(*) عندما أذهب لزيارة المتاحف أجد في أغلبها مصوغات وحلي في غاية الجودة والجمال أحيانا، ولكن لم أجد في أي متحف عرضا أو شرحا لطريقة صنعها والأدوات التي استخدمها الصاغة في غابر الأزمان.

كان الصاغة وسلمان لم يشذ عنهم يصنعون معظم أدوات عملهم بأيديهم، فالفرن الذي يصهر فيه المعدن، يصنعه من الطين ويسمى (الكورة)، والمنفاخ من جلد خروف صغير يسلخ جلده دون شفقه ودون أن يشق من الوسط فيخرج كاملا ثم يدبغ بالملح وقشور الرمان وتوضع في مقدمته قصبة لتنقل الهواء إلى الفرن وخشبتان من الخلف لدفع الهواء في ذلك المنفاخ.

وقود الفرن من الفحم والذي يحضر غالبا من القصب أو من جذور الشوك، وكان الصاغة يصنعون سراجا من الصفيح يضعون في رأسه شرائط من القماش تنقع بالنفط داخل السراج فيخرج منه لهب أسود، يوجهون ذلك اللهب على المعدن الذي يصنعون منه

والعديد من الصاغة كانوا كغيرهم من الحرفيين يتنقلون من قرية لأخرى وراء رزقهم وسلمان واحدا من هؤلاء الرحّل.

يبدأ سلمان رحلته السنوية سعيا وراء رزقه فجر يوم الاثنين الأول من شهر آذار كل سنة. يرافقه في رحلته تلك ابن أخته الوحيد زهرون. وهو صبي في مقتبل العمر لم يبلغ بعد مبلغ الرجال.

لم يرحلون في هذا اليوم بالذات؟ سأل سيف الدين كاسرا حاجز الصمت ليشعرني أنه لا يزال صاحيا متابعا لما أسرده.

أما لماذا يوم الاثنين بالذات أخي الكريم، فلا علم لي بذلك. ولكن ربما مرد ذلك كون سلمان يتفاءل بهذا اليوم أو أن أيام الآحاد تكون عادة مكرسة للمهام والطقوس الدينية التي لا يفوت سلمان أي منها!

كان الصبي زهرون شديد التعلق بخاله، وهكذا كان الخال يحنو بدوره على هذا الصبي الذي تيتم صغيرا فقد أخذت أباه الجندرمة التركية ليساق إلى الحرب ولم يعد بعدها.

ظل سلمان يحرص على تعليم الطفل أسرار الصنعة والقراءة والكتابة وأصول دينهم الموغل في القدم. فالمندائيون كما يقال آخر من تبقى من أهل العراق الأوائل. إنهم بقايا السومريين كما يعتقدون

الحلي بأنبوب طويل مستدق الرأس(بوري)، وغالبية الأدوات الأخرى يصنعونها يدويا مثل القوالب التي يسكب فيها المعدن المذاب. وغيرها من الأدوات.

هم ويعتقد ذلك غيرهم.

ترافقهم في سفرهم أتان صغيرة بيضاء تعبت معهم من كثرة الترحال فبرزت أضلاعها وبح صوتها. كانت تنقل لهم السنادين والمطارق وموقد الطين، وغيرها من العدد والمتاع.

متاع السفر الذي تحضره لهم حيهن مكون في الغالب من التمر المدقوق بالجاون(*)، حيث يمزج التمر المهروس بالسمسم المقلي والمقشر والمطحون مع حبات من الينسون، فتصنع منه كرات لا تدخل الفم مرة واحدة لكبرها، وإنما تختفي فيه بعد قضمات عدة، تكون تلك الكرات شهية ومغذية وتبقى محافظة على قيمتها الغذائية زمنا طويلا وتسمى (فلّ). وللمندائيين يوم خاص لدق الفّل، وهو في الخريف عادة، ودق (الفلّ) تقليد ارتقى إلى أن يكون أشبه بالعيد. وبالمناسبة فالفلّ خير علاج للجوع في وقت السفر.[1]

حرصت حيهن كذلك على أن تذبح لهم ديكا في يوم الأحد الذي يسبق السفر، تكون قد ملّت من علفه طيلة الشتاء.

تحضر من ذلك الديك المنكود أكلة يبقى طعمها اللذيذ

(*) الجاون هو جذع شجرة يحفر داخلها إلى عمق كبير ويكون كالقدر العميق يستخدم في هبش الرز وتقشيره بعمود من الخشب أيضا يسمى بالميجنة. ويستعمل هنا في هرس التمر أيضاً.

[1] دق الفل يكون عادة في الخريف وربما احتفظت لهم حيهن بكمية منه لسفرهم!

ماثلا طيلة السفر في فم سلمان، ربما لتظهر له مهارتها في الطبخ، فلا تترك له فرصة المقارنة مع ما تعده الأخريات من طعام.

تأخذ حيهن ديكها صباح الأحد إلى واحد من أخوانها رجال الدين ليذبحه حسب الطريقة المندائية[1].

وهكذا تضحي بالديك بعد أن يكون قد تعب هو طيلة العام من تلقيح الدجاجات اللواتي ملأن البيت بالفراخ فتطبخه لسلمان ورفيقه بطريقة خاصة جدا، تضيف لطبختها توابلا تجمعها وتطحنها بنفسها وحسب وصفة سرية أخذت اسمها من مبتكريها الصابئة المندائيين (بهارات صبة) ثم تحشي ديكها بما توفر من مكسرات وفواكه مجففة وغيرها وتغليه لمدة طويلة حتى ينضج لحمه. ثم يقلى الديك كاملا بالدهن وقد تفننت النساء المندائيات في إعداد هذا النوع من الطعام، ظلت وصفة التوابل هذه حكرا على المندائيات فقط.

ولكنني سأكشف سرهن، وأكتب لكم تلك الوصفة، قد يدفع الفضول بإحداهن لتجربتها بإعداد أطباق الدجاج والطيور وحتما إنها

---

[1] لا يأكل المندائيون من اللحوم سوى ذكر الغنم والطيور والأسماك بعد أن يذبحها رجل دين وبسكين من حديد تكون قد شحذت وتكون الذبيحة خالية من العيوب الخلقية وبعد أن تغسل بالماء الجاري يذكر عليها اسم الخالق وتطلب المغفرة منه كون ما يذبح هو للأكل ومحلل شرعا.

سوف لن تندم(*).

تضع لهم حيهن أيضا كيسا من الخبز وكمية من التمر ألخضراوي المكبوس في حلان من الموسم الماضي وقربة ماء وبعض الأغطية، وتسكب طاسه من الماء خلفهم طردا للشر.

لم أعرف سببا وجيها لسفرهم في كل مرة إلى شمال العمارة. فلم يصادف أن سافروا إلى الجنوب سوى مرة واحدة. وربما كانت تلك السفرة هي السبب في سفرهم بعدها إلى الشمال فقط.

لوّ كان لي برا وفرضا(*) لسرت في الأرض طولا وعرضا

حدث ذلك عند مشارف هور(**) العمارة.

كان الشيخ فالح من كبار شيوخ عشيرة(البو محمد) قد سمع بسلمان وأراد أن يمتع ضيوفه بأشعار سلمان ونوادره، ويجعل من

(*) تتكون تلك الخلط من سبعة توابل وغير متوفرة عادة في الأسواق 130 غرام من الدارسين، 50 غرام من جوز الطيب (جوزه بوه)، 75 غرام من الفلفل الأسود، 75 غرام من الفلفل الأبيض، 70 غرام من القرنفل، 70 غرام من الهال، 50 غرام من العرق الحار (الزنجبيل). تطحن جميعها جيدا وتخلط جيدا وتوضع من تلك الخلطة كميات مناسبة في ماء القدر الذي يظل يغلي طويلا مع البطة ومحتوياتها الأخرى ليصنع منه مرقا لذيذا جدا.

(*) كانت حصص التمر التي توزع على المسلمين أيام الخلفاء الراشدين تسمى (فرض). والبرهو الحنطة.

(**) الأهوار مستنقعات مائية واسعة تغطي مساحات شاسعة من جنوب العراق تكثر فيها أحراش القصب والبردي وفيها ثروة سمكية كبيرة وتهاجر إليها في موسم الشتاء أنواع عديدة ونادرة من الطيور. قبل أن يأمر بتجفيفها نظام البعث خدمة لأغراض حربية.

زواج ابنه البكر فرصة للمباهاة. فأرسل الشيخ وراء سلمان من يحضره ليشهد العرس وليصوغ (النيشان) حلي العروس.

جاء وكيل الشيخ المعني بمراعاة مصالحه والمقيم في مدينة العمارة، إلى سلمان في قريته، وأعطاه تسع ليرات ذهبية عثمانية ليذهب بها إلى حيث يقيم الشيخ في الهور فيصوغ منها نيشان العرس. وطلب منه أن يجمع عدته ولوازم سفره ويتوجه فورا إلى مضيف الشيخ فالوقت ضيق والعرس على الأبواب.

ثم أعطاه بضع (مجيديات) وهي العملة السائدة في العراق في تلك الأيام كتقدمة عن جهوده حسب تعليمات الشيخ.

قلب سلمان المجيديات وتذكر كيف أنهم وفي طفولتهم لم يعرفوا ماذا يصنعون بالنقود، حتى أن المعدمين من الفقراء يرفضون أخذها من المحسنين!

ترك سلمان المجيديات مع حيهن لتدبر أمرها بتلك النقود وراح يعد نفسه لسفرة مضمونة الربح.

وجد سلمان في هذه السفرة فرصة مناسبة قد تفتح باب الرزق عليه لما اشتهر به شيوخ تلك المناطق من ثراء فاحش.

أما حيهن فلم تتفاءل كثيرا بتلك السفرة، وقد تطيرت منها عندما كسر نقار الرحا الطابق الفوقاني من رحّا بيت مولى حارس بستان

بيت فرعون القريب منهم، وقد حدث عراك كبير حينها.

عندها غضب نقار الرحا على القرية وتوعدهم بأن لن يصلح لهم الرحي بعد اليوم وتركهم في حيرة من أمرهم، حتى شاع مثل حينها يقول: (نقار كسر الرحا وراح مغتاظ)(*).

خاطت حيهن لسلمان كيسا من القماش، ليحفظ الليرات في داخله، وعلقته في رقبته بعد أن أحكمت إغلاقه خوفا على الليرات من الضياع لعلمها في لا أبالية سلمان.

لملم سلمان عدة العمل ولوازم السفر الأخرى على عجل. ولكنه لم يصطحب رفيق سفره ابن أخته معه هذه المرة، فقد كان الصبي يتعافى من مرض البلهارسيا المستوطنة في جنوب العراق بشكل وبائي.

وضع سلمان أغراضه على عجل على ظهر رفيقة دربه وسار معها في الطريق إلى الهور حيث مضيف الشيخ فالح.

وصل سلمان مدينة (مسيعيدة) والتي تقع على تخوم الهور

(*) كانت حبوب الحنطة تطحن يدويا في البيوت في رحى من الحجر دائرية الشكل بقطر ذراع تقريبا متكونة من قطعتين تدار الفوقانية بيد خشبية صغيرة مثبتة فيه وتدور حول محور من الحديد مثبت بالقطعة السفلى، وتكون القطعتان خشنة الملمس من الداخل لتطحن الحبو وبمرور الزمن تكون بحاجة إلى نقرها لتعود خشنة من جديد. وكانت النساء يقمن بتلك العملية وتصاحبها عادة أغاني حزينة شجية.

وترك هناك رفيقة دربة (الأتان) تلهو مع أبناء جنسها عند أتباع الشيخ في المدينة، بعد أن أوصاهم بها خيرا، وأخذ منهم عهدا بأن يطعموها جيدا وأن لا يحملوا عليها أثناء غيابه. واستعار هو منهم قاربا ليواصل رحلته وسط أحراش القصب إلى مضيف الشيخ.

كانت القوارب المستخدمة في الأهوار رفيعة ذات مقدمة مرتفعة تسمى (طراده) ظلت محافظة على شكلها السومري إلى الآن. وكان جماعة سلمان من المندائيين قد اختصوا وبرعوا بصناعتها.

انطلق سلمان من الفجر في طرادته يشق طريقه برشاقة بين أعراش القصب الذهبية، وبين مستعمرات البردي متجاوزا مزارع الرز وقطعان الجاموس التي تقضي جل وقتها في الماء، وكأنها ضفادع مهولة الحجم.

كانت الطرادة حديثة الصنع لا تزال تفوح منها رائحة القار، وكان مزاج سلمان رائقا ولم يعكره سوى الضباب الذي يلف عالم الهور حاجبا الرؤيا أمام زواره المتطفلين.

كان سلمان يدفع بطرادته بالمردي وهي عصا طويلة من الخيزران، وأحيانا أخرى يدفع الطرادة بمغرافة مصنوعة من الخشب يبدلها من يد ليد كلما تعب. كان كل هم سلمان أن يصل في وضح النهار فالشمس هي المرشد في هذه المتاهة.

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصـــــوّت إنســـــان فكـــــدت أطيـــــر

بعد أن توغل سلمان في وسط الهور، اعترض طريقه أربعة لصوص وكأنهم ظهروا من تحت الماء كما في قصص الجان.

كان أحدهم مسلح ببندقية من نوع (موزر) الألمانية الصنع، صوبها نحو سلمان ليجبره على رصف الطرادة إلى الجزرة الصغيرة التي وقفوا عليها.

كان اللصوص يترصدون سلمان وكأنهم على علم بما يحمله من ثروة فضيقوا عليه ليعطيهم الليرات وهددوه بالقتل إن أمتنع. ولما لم يجد سلمان وسيلة للخلاص من اللصوص، رمى الليرات الذهبية التسع على أرض الجزيرة بعد أن أركن الطرادة إلى الجرف ونزل منها كما أمروه.

راحت الليرات تتدحرج على الأرض كل واحدة منها أخذت تشق لها دربا مختلفة وسط العشب العالي. مما جعل العثور عليها مسألة صعبة.

تفرق اللصوص في البحث عن الذهب تاركين حامل البندقية واقفا قرب سلمان يحرسه.

أخذت تراود الحارس رغبة جامحة في الانضمام إلى رفاقه

للبحث عن الليرات التي لم يرها في حياته قط، وإنما سمع عنها فقط.

فكان قلقا وظل واقفا متبرما ينقل البندقية من يد إلى أخرى وتنهدات الحسرة لم تنقطع.

استغل سلمان رغبة حارسه وحثه على الانضمام إلى رفاقه قبل أن يسرقوا حصته منها، وتبرع له بأنه سيحمل البندقية بدلاً عنه لحين عودته مظفرا بإذن الله !

لم يكذب الحارس الخبر، فأعطى البندقية لسلمان فورا شاكرا له نصيحته، وانضم للآخرين يبحث عن الكنز.

وقف سلمان هادئا والبندقية في يده، يرقب اللصوص وهم يعثرون على الليرات واحدة تلو الأخرى.

عندما تيقن سلمان أن اللصوص قد عثروا على الليرات التسع كلها جهز البندقية وصوبها نحوهم طالبا إعادة الليرات التسع كاملة له وفورا ومن دون مماطلة.

لم يجد اللصوص بدا من إعادتها كلها إليه بعد أن تأكدوا من نيته بالقتل إن امتنعوا، والحسرة والندم تكاد تفتك بهم، وبالخصوص بذلك الحارس الأرعن.

أعاد سلمان الليرات إلى الكيس وقفز بخفة إلى الطرادة ودفعها عن الجرف والبندقية في يده، فلم يتجرأ أحد منهم في اعتراضه أو الاقتراب منه.

أخذ اللصوص يسيرون على الجرف بمحاذاة القارب حتى انتهت الجزيرة وهم يتضرعون إلى سلمان بأن يعيد لهم البندقية، مقسمين بأغلظ الأيمان بأنهم لن يتعرضوا إليه بسوء أبدا طيلة حياتهم.

لم يكن سلمان يود الاحتفاظ بالبندقية، فوعدهم بأنه سيعيدها لهم في مضيف الشيخ فالح.

راح سلمان يشق طريقه بين أعواد القصب بعيدا عن اللصوص وهو يترنم بأبيات من الشعر كان قد قالها تغزلا بإحدى الجميلات ذات يوم وردت فيها كلمة موزر يقول فيها :

*لكَاني ظريف الطول ما زرّ «يحيد عن دربه»

خمل وزرار فوق النهد ما زرّ «نسي ولم يغلق زرار ثوبه فبان النهد منه»

بكَلبي من لحاظه يثور موزر «بندقية موزر»

نهودك والتفكَ عمّن عليه(*) التفك بمعنى البنادق سبب شقائي

وراح يتغنى بأبيات الشعر تلك على الطور الصبي(**) تاركا

(*) هناك مشكلة في كتابة الشعر الشعبي لورود كم كبير من الأصوات الغير عربية وهي أعجمية في الغالب مثل (كَ). والمعنى لاقته فتاة خفيفة الظل ولم تحيد عنه وكانت قد نسيت أن تسد فتحات الثوب عند الصدر فكان الشوق لها كطلقات بندقية الموزر، فأورثته الهم.

(**) الأغنية الريفية في جنوب العراق تعددت طرق أدائها وأشهرها طبعا المحمداوي والطور الصبي كان أحد ألمندائيين قد ابتدعه وسمي بالطور الصبي فالمندائيون يطلق عليهم (الصبه) في الجنوب. وقد اشتهر المطرب الراحل (خضير حسن) بهذا النوع من الغناء وكان آخر من تغنى به المطرب الرائع (حسين نعمه) والمطرب (رياض أحمد).

اللصوص يلطمون على رؤوسهم بعد أن فقدوا الليرات الذهبية التسع، وفقدوا الأمل باستعادة البندقية.

وصل سلمان مضيف الشيخ فالح عصرا. ولولا قصة اللصوص لوصل عند موعد الغداء الذي كان يمني نفسه به.

فالوجبة الشهية الأشهر التي اختص بها أهل الأهوار وتسمى طابق وسمك تؤكل ساخنة فقط.

- عزيزي سيف الدين إن لم تك قد ضجرت أو تعبت سوف أحدثك قليلا عن تلك الأكلة، وستجد قريبا شيئا نأكله إن كنت تشعر بالجوع.

- كنت قد جربت تلك الأكلة شخصيا ذات مرة في هور العمارة أيضا، في مكان قد يكون قريبا من مضيف الشيخ.

- لا خذ راحتك ولكن لا تتوقف إذا رأيتني قد أغمضت عيني فاستمر فكلي أذان صاغية أجابه سيف الدين بسخرية!

- كيف استمر وأنت نائم؟

- «لك هاي غير ورطة» لا أخي لست كذلك كل ما في الأمر أتعبني ناصر حكيم ونواحه الذي لا ينقطع ألا يوجد تسجيل لأم كلثوم مثلا؟

- وهذه أم كلثوم ودارت الأيام، وإذا نمت سأنام أنا أيضا على

مقود السيارة وتكون قد جد جنيت علينا.

- لا على بختك ها أنا ذا معك في كامل اليقظة.

- أخي سيف أكلة (الطابق) لم تتغير منذ قرون وربما منذ أن تعلم الإنسان زراعة الرز. وعندما جربتها مرة فقط أدركت سبب حرص سلمان على الظفر بتلك الوجبة. إنها وجبة شهية حقا رغم بساطتها.

عندما يأتي ضيف إلى الهور، أي ضيف، يرحب به هناك بحفاوة، فقد اشتهر هؤلاء القوم رقم فقرهم بالكرم المفرط.

نعم لقد رأيت كرم وترحاب جماعتكم في اللطلاطة!

اللطلاطة ليست الهور أخي سيف الدين، وهؤلاء ليسوا جماعتنا ولا تقاطعني رجاء واسمع وأنت ساكت.

أثناء الترحاب بالضيف من قبل رب الدار (الكوخ)(*) الذي نزل عنده الضيف يذهب أحد الشباب أو اليافعين من الأبناء، وإذا لم يوجد أحد منهم تذهب إحدى الفتيات بالطرادة مع الفالة(**) لصيد سمكة. وحتى مجيء السمكة وشقها وتمليحها تكون ربة الدار قد أعدت النار

(*) الناس في الأهوار يسكنون أكواخا من القصب وتكون على مجموعات وحسب وسع الجزيرة التي يبنون عليها وأحيانا يكون بيتا واحدا يبنى على جزيرة صغيرة تكون قد شيدت من القصب وبعض الطمي.

(**) الفالة أداة تشبه المذراة من الحديد ذات ثلاث رؤوس وذراع من الخشب ترمى على السمكة المراد اصطيادها والت تكون تسبح في الجوار وهي في الغالب من نوع القطان ذو الرأس الأسود ويكون حجمها على قدر عدد الضيوف الواجب ضيافتها.

من القصب ومخلفات الجاموس المجففة على شكل أقراص (مطآل) تحت صحن من الطين المفخور يشبه دائرة قطرها يقارب المتر. وعندما يصبح الصحن ساخنا شديد الحرارة يسكب فوقه طحين رز العنبر المخلوط بالماء والملح.

يتماسك الخليط مكونا رغيفا سمكه سنتمترا أو أكثر يغطي مساحة الصحن ثم يترك على النار إلى أن ينضج.

بعد أن تشوى السمكة يقدم الطابق ساخنا مع بضعة رؤوس من البصل اليابس للضيف، على طبق نسج من سعف النخيل على شكل دائري، ليتناول وجبة شهية مع رب العائلة، والحاضرين من الشباب الذكور.

بعد أن وصل سلمان مضيف الشيخ كان الطعام قد رفع فاستقبل هناك استقبال ضيف مغمور فتناول طعامه وحيدا خارج المضافة والمكون من سمكة صغيرة وأرغفة من خبز التنور، غسل يديه على عجل ودخل المجلس، والذي كان قد التأم من جديد وجاء دور القهوة.

أخذ كل واحد من ضيوف الشيخ مكانه حسب مقامه وكبر سنه، متربعا على بسط غزل صوفها محليا، وصبغت ونسجت في القرى المجاورة، تجد أغلبها مليئة بالزخارف الهندسية الجميلة فجعلتها قطعا فنية مميزة.

راح القهوجي يدور بفناجين القهوة بين الحاضرين الذين ازدحم بهم المضيف على عادته، والمبني من القصب بطراز معماري فريد يختلف عن باقي بيوت القرية (*).

بعد السلام وتقبيل يد الشيخ، جلس سلمان في أحد أركان المجلس، وبدأ بالسلام على الحاضرين، وبعد الانتهاء من ترديد جملة الله بالخير التي راح يرددها الجميع بترتيب تراعى فيه المقامات أيضا، أعلن سلمان عن نفسه. وعندها عاتبه الشيخ كونه حضر المجلس متأخرا. فطلب سلمان الأذن من الشيخ ليقص على الحضور ما جرى له مع اللصوص، والذين كانوا السبب في قدومه متأخرا.

- اللصوص اعترضوا طريقك وأنت بضيافتي؟

سرد سلمان قصته مع اللصوص الأربعة بالتفصيل الممل، ثم وضع البندقية أمام الشيخ كشاهد على صدق روايته قائلا : (وهذا شاهد حجايتي يا محفوظ).

(*) المضيف يشبه برميلا كبيرا طرح طوليا، بعد أن قطع ثلثه الأسفل. ترفع سقفه العالي أعمدة من حزم القصب، جمعت وربطت بحبال مبرومة من شرائح سعف النخيل أو القنب، على شكل دائري تتشابك مع بعضها من الأعلى لتشكل قوسا كبيرا.
يرقد فوقها سقف مكون من حصران القصب المنسوجة بطريقة يتقنها سكان الأهوار، تسمى (البارية). أما جدران المضيف فهي مكونة من حزم صغيرة من سيقان القصب تتقاطع مع بعضها مكونة أشكالا رباعية بديعة الشكل، تسمح بمرور الهواء والضوء إلى داخل البناء.

ثـارت ثـائرة الشيخ فـالح عنـد سماعه أن لصوصـا مـن عشيرته اعتدوا علـى حرمـة ضيفه، ومحـاولتهم سرقة أموال تعود لـه أصـلا، وزاد من غضبه تأييد الحاضـرين لـه ودعوتهم للقصـاص بقسوة ممن ارتكب تلك الجريمة بحق الشيخ وضيفه.

أمر الشيخ حرسه الخاص وأحد مساعديه بجلب اللصوص فورا، وحذرهم من العودة من دونهم.

انطلق الحـراس فـي أثـر اللصـوص حـال تلقيهم الأمـر، ولـم تكن عمليـة العثـور علـى هـؤلاء اللصـوص صـعبة رغـم متاهـات الهـور، فالقليل من الناس من كان يملك بندقية في تلك الأنحـاء وهـم معروفـون ويعدون على الأصابع.

جاء الحراس باللصوص الأربعة مربوطي الأيدي، ومقيدين إلـى بعضـهم بحبـال متينـة مـن القنـب، ورمـوهم تحـت أقدام الشيخ بطريقـة استعراضية، وكأن الرجال الأربعة أكياس من الرز،

اجتمع المجلس مبكرا في اليوم التالي للنظر في هذا الأمر الجلل.

بعـد أن أبـدى اللصـوص نـدمهم علـى فعلـتهم، رووا القصـة كمـا جـرت، وكانـت كمـا رواهـا سلمان تمامـا. ثـم راحـوا يتوسـلون بالشيخ وبالحاضرين وبسلمان للعفو عنهم، ومسامحتهم على فعلتهم التـي هـي من غواية الشيطان الرجيم لعنه الله.

فرض الشيخ غرامة كبيرة على اللصوص الأربعة كونهم اعتدوا على ضيف من ضيوفه، ليكونوا عبرة لمن يتجرأ على التطاول على مقام الشيخ. وأخذ منهم تعهدا بعدم التعرض لسلمان مستقبلا، وترك مسألة استعادة البندقية لتقدير سلمان فهي قد أصبحت ملكا حلالا له حسب العرف المتبع.

لم يرغب سلمان في الاحتفاظ بالبندقية أصلا، فهو يعتبرها أداة للشر، ودينه يحرم عليه قتل البشر قطعا، وحتى قتل الحيوان محرم عند المندائيين.

كان قد قرر مع نفسه إعادة البندقية إلى اللصوص، ولكنه أراد العبث بهم والمزاح معهم، معلنا للحاضرين أنه سوف يصنع من ماسورتها سيفا لأبن الشيخ كهدية عرس.

وهنا اصفرت وجوه اللصوص بعد أن لمسوا الجد في حديث سلمان، وراحوا يتوسلون بالشيخ لإقناعه بعدم إتلاف البندقية وإعادتها لهم، ونذروا علنا وأمام الحضور بالتضحية بخروف أبيض إن عادت لهم البندقية، مع استعدادهم بدفع تعويضا مناسبا لسلمان عنها وكما يحدده الشيخ.

أعاد سلمان البندقية لهم دون أن يأخذ ثمنا عنها مكتفيا بالنذر. وتصالحا وقضى الجميع سهرة ممتعة استمعوا فيها بشوق لأحداث

قصة أبو زيد الهلالي كما رواها سلمان بأسلوبه المشوق.

بعد أن أنجز سلمان عمله في صياغة حلي العرس، استأذن الشيخ فالح، وشكره على ضيافته وكرمه. وعاد إلى أهله بخروف أبيض وبمجموعة من طيور المسك والخضيري التي تشتهر بها الأهوار مع مبلغ من النقود.

وجد الأتان التي تركها في (مسيعيدة) بأحسن حال بعد شهر من العلف الجيد، والراحة التامة واللهو مع أبناء جنسها، فعاد عليها إلى قريته.

استقبلت حيهن سلمان هذه المرة بحفاوة، وترحاب كبير،بعد أن رأته يجرجر بخروف أبيض فعيد البنجة(*) على الأبواب، وربما هذه المرة الأولى التي سيذبحون فيها خروفا للعيد، فالخراف لا يقدر على شراءها إلا الميسورون، وكان الناس يكتفون بذبح بطة أو دجاجة أو ديك في هذه المناسبة إن توفر ذلك. كما ذكرّها هذا الخروف بأيام عزها التي ولت بعد خروجها من بيت أبيها.

بعد الذي جرى لسلمان مع اللصوص في سفرته تلك، عاهد نفسه بعدم الذهاب إلى تلك النواحي مرة أخرى مهما كلفه الثمن. واكتفى

(*) عيد البنجة هو عيد الخليقة عند المندائيين ينحرون في الخراف ويمارسون طقوس الأرتماس في الماء وغيرها من الطقوس بشكل واسع.

بالسفر إلى الشمال فقط حيث الأمان والاستقبال الرحب.

عندما تسافر إلى شمال العمارة ترى القرى الصغيرة متناثرة بين بساتين النخيل بالقرب من نهر دجلة. بيوتها غالبا ما تكون من القصب وفي أحسن الأحوال من الطين. أما القرى الكبيرة فتشاد على ضفاف النهر مباشرة. حيث بيوت الإقطاعيين، الواسعة والمميزة والمبنية من الطابوق، تحيط بها حدائق قد تصادف فيها زهور الختمة بألوانها المتعددة.

معظم القرى الكبيرة كانت تستقبل سلمان كل عام وكأنها على موعد معه.

عندما يصل سلمان إلى القرى الكبيرة، أول ما يقوم به هو زيارة شيخها. يسلم عليه ويعرفه بنفسه، فيستقبله الشيخ ويشمله برعايته، ثم يفرد له في العادة، كوخا صغيرا قرب المضيف, وأحيانا يصنعه سلمان بنفسه بمساعدة بعض الأفراد ينتدبهم الشيخ لذلك، ليضع فيه سلمان عدته وأغراضه، ولينام فيه أيضا هو وابن أخته.

أما الأتان فتكون مدللة في تلك القرى، فهي تسرح وتمرح حيث تشاء لا أحد يعترضها، أليست هي أيضا في ضيافة الشيخ؟

ربما تكون تلك الأوقات المستقطعة من عمرها، هي مصدر صبرها على احتمال مصاعب السفر مع سلمان من قرية لأخرى.

يعد سلمان سكنه الجديد على طريقته ويرتب عدده فيه، ويجمع له القرويون عروق الشوك ليصنع منها الفحم لموقده.

وبعد أن يقضي أيام الضيافة الواجبة، يبدأ في إنجاز ما يحتاجه أهل القرية والقرى القريبة من صياغة حجول الفضة والقلائد الذهبية والخواتم والخزامات وهي التي تعلق في الأنف وغيرها من الحلي، مستخدما الفيروز الإيراني الذي كان متوفرا بكثرة في تلك الأيام وكذلك حبات من اللؤلؤ وفصوص من الزجاج وغيرها. وفي حالات نادرة وللزبائن المميزين يستخدم الميناء في تجميل النقوش التي يرسمها بقلم من حديد (قلم نقش) يعده سلمان بطريقة خاصة، وكذلك إصلاح الحلي القديمة التالفة.

يتم كل هذا بنظام يتكرر كل عام، تكون فيه الأولوية لعائلة الشيخ، ثم لأولاده وبناته المتزوجات وأسرهن، ثم يأتي دور السيد (مومن) القرية والسراكيل[1]، وهناك استثناءات للعرسان، ولكن بموافقة الشيخ طبعا، ثم لعامة الناس.

يمتد العمل لأسابيع وأحيانا لشهور، ويظل سلمان طيلة تلك المدة في ضيافة الشيخ وتحت حمايته فلا أحد يعترض طريقة عيشه أو

---

[1] السركال هم الطبقة السفلى من وجهاء العشيرة أو الشيوخ ويساهمون كذلك في استغلال الفلاحين

يقاطع طقوسه التي كانت تثير استغراب أهل تلك القرى، والتي لم يعرفونها أو يعتادوا عليها فتركت تلك الطقوس وذلك المتعبد الغريب رهبة في قلوب الآخرين.

يقضي سلمان نهاره في العمل وفي المساء يكون في مضيف الشيخ وقد تحول إلى مجلس أدب وطرب، حيث الأغاني والشعر الشعبي، والأحاجي، والقصص، والأحاديث المختلفة، ولسلمان نصيب كبير في ذلك المجلس.

كان سلمان نجم تلك المجالس من دون منازع بشعره وقصصه المشوقة، التي جعلت الشيوخ يتمسكون به ويترقبون قدومه كل عام، ويشملونه بحمايتهم ويغدقون عليه الهدايا.

سلمان رجل قوي البنية، جريء فلم يكن ليبالي بالمخاطر، أضف إلى ذلك حماية الشيوخ له، فلم يتجرأ عليه في تلك المناطق أحد من اللصوص يوما.

أما الجن والعفاريت فلم يقتربوا من سلمان لورعه وكثرة تعبده، والذي أضفى عليه هالة من القدسية جنبته الكثير من المشاكل، وتركت له فرصة التغزل بالجميلات دون رقابة أحد.

بعد أن ينجز الرجل أعماله في تلك القرية. يجمع عدده ويودع الشيخ وأهل القرية ويحث أتانه لقرية أخرى، ويتكرر ذلك المشهد في

كل مرة. حتى أنه أصبح معروفا في تلك القرى والجميع فيها ينتظرون قدومه كل عام، بعد أن كون فيها صداقات وعلاقات واسعة على كل الأصعدة.

عندما يقترب الشتاء، يجمع سلمان ما قسمه الله ويأخذ أغراضه وأتانه وأبن أخته على ظهر أول سفينة نازلة إلى مدينة البصرة، والتي كانت تتوقف عادة في المدن الكبيرة ومنها مدينة العمارة.

يعود سلمان مع ابن أخته وأغراضهم على ظهر الأتان مشيا إلى قريتهم، محملين بالهدايا من قماش وقهوة وشاي وسكر وغيرها، وبقليل من النقود، والتي لم تعد تسد حاجة أسرته التي أخذت تكبر، وأسرة أخته الأرملة التي تعتمد عليه أيضا بعد أن أخذ الأتراك زوجها ولم يعد. ولحين رحلته القادمة يعيش الجميع بما قسمه الله!.

لم تستمر حياة سلمان طويلا على هذا المنوال. فعندما اندحر الجيش العثماني على يد الجيش البريطاني والذي كان جل جنوده من الهنود السيخ والكركة. ورحل الأتراك عن العراق على مضض بعد قتال ومعارك ضارية. عندها تبدلت الطرابيش التركية الحمر بقبعات انكليزية غريبة الشكل لم يعتد العراقيون على تقبل رؤيتها بسهولة ناهيك عن لبسها على الرغم من ترويج الملك والعائلة المالكة لها لاحقا، إلا أنها ظلت مرفوضة من قبل الغالبية الساحقة من الشعب إلى

اليوم فلا تراها اليوم إلا في أسواق التحف والخردة.

دخل الإنجليز العراق عام 1914 بحجة تحريره من النير العثماني ونشر الديمقراطية فيه! وهي حجج سرعان ما انكشف بطلانها.

أحس العراقيون أن عاداتهم وتقاليدهم مهددة، وإن كبرياءهم قد طعنت بعد أن كثرت العيون الزرق حتى وصلت الأهوار.

ثم أن المحتلين الجدد يعتنقون دينا آخر يعد كفرا عند الطبقات البسيطة من الشعب في ذلك الزمان، ولهم عادات وتقاليد غريبة عن العراق وأهله، ولكونهم راحوا يتصرفون مع الناس بعجرفة المحتل ممتهنين كرامة الإنسان العراقي الثائر بطبيعته، لم يبق لشيوخ العشائر ورجال الدين والفلاحين ولمن وراءهم، سوى رفع السلاح بوجه هؤلاء المحتلين الجدد في ثورة عارمة انطلقت شرارتها من مدينة الرميثة قرب السماوة.

كانت تلك ثورة العشرين التي اشترك فيها أكثر من مائة وثلاثين ألف ثائر من العراقيين بأسلحة بدائية، دامت لأكثر من خمسة أشهر وشملت العراق كله، وأظهر فيها الثوار مآثر نادرة في البطولة والتضحية، وكبدوا فيها الانكليز ضحايا كثيرة فأبدلت خططهم بضم العراق للتاج البريطاني.

تململ سيف الدين عند سماعه أن الحديث قد وصل إلى ثورة العشرين فأشعل سيجارا جديدا دون أن يعير اهتماما لما أعانيه من رائحة التبغ المحروق.

انتقل سلمان بعائلته من قريته التي ولد فيها بعد أن راحت القوات البريطانية تهدم القرى وتحرق المزارع إلى مدينة قلعة صالح القريبة من مدينة العمارة ليستقر فيها حيث استأجر غرفة حشروا فيها جميعا. وكان الوضع هناك هادئ بسبب وقوف شيوخ تلك المناطق مع المستعمر الجديد..

في عام 1921 جلب الإنكليز أميرا غريبا عن العراق ونصبوه ملكا عليه بطريقة (ديمقراطية) جدا عن طريق أخذ تواقيع الناس بالموافقة على تنصيبه بمضابط نشطت القوات الغازية في إعدادها وجمعها، حتى إن بعضها أصبح محل تندر وسخرية لم يشهد شعب قبل العراقيين مثلها من قبل.

لم يستوعب (قائم مقام)[1] إحدى المدن ما المطلوب منه بخصوص تلك المضابط بسبب رداءة الاتصالات، فأعد مضبطتين. الأولى جمع فيها تواقيع الناس على مبايعة الملك الجديد، والأخرى أخذ فيها تواقيع ذات الناس على رفضهم مبايعة الملك، وأرسلت

---

[1] القائم مقام هو الموظف الأعلى رتبة في المدينة ويقوم مقام المحافظ

المضبطتين إلى القائد العسكري البريطاني ليختار منها ما يشاء.

لقد ظن غالبية الناس في الشمال أنهم لم يصوتوا لصالح الملك وإنما للحصول على المزيد من السكر والتموين، وفي الجنوب كان الشيعة يظنون أن فيصل شيعي مثلهم.

في اجتماع موسع لبدو الصحراء الغربية قال الشيخ (فهد الهذال) رئيس قبائل عنزة و(علي السليمان) رئيس قبائل الدليم :

- «يا فيصل إننا نقسم بالولاء لك لأنك مقبول من لدن الحكومة البريطانية».

وبهذه الطريقة بلغت نسبة المصوتين للملك 96%.

كان القطار الذي وصل به فيصل إلى بغداد يمر بمحطات كانت منصات الاستقبال المقامة للترحيب به خالية من الناس.

حتى أن بغداد لم تكن فيها أماكن أو أبنية ملائمة لاستقبال ملك، فالشارع الوحيد في بغداد شق من قبل الألمان لأغراض التموين وإمداد قطعاتهم، وقد قام خليل باشا قائد الجيش العثماني في بغداد بذلك.

فكان المّار بهذا الشارع في تلك الفترة يرى أنصاف البيوت وقطع من الأثاث على جنبي الشارع الذي سمي بشارع(خليل باشا جاده سي) ثم سمي في بداية الأحتلال البريطاني لبغداد باسم شارع

الجنرال مود، والذي مات بداء الكوليرا عام 1917 ولم يطلق اسم الرشيد عليه إلا عام 1935.

من الأمور الطريفة أن هذا الشارع كان يغرق بالمياه في موسم الأمطار فيقف الحمالون (الفيليه) الذين يعملون في مرفأ الكمرك لنقل البارزين من العراقيين والأوربيين على ظهورهم لقاء «عانات[1] معدودة».

وعندما توج الملك فيصل في ساحة القلعة في الساعة السادسة من صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر آب عام 1921، جاء به المندوب السامي «كوكس» ورئيس أركان الجيش البريطاني في العراق «ألمر هالدين» من داره إلى الساحة المكشوفة وسط القلعة ومعهم محمود الكيلاني وحسين أفنان (ايراني) وتحسين قدري (سوري)، وعند وضع التاج على رأس فيصل لم يستقر، وكان ذلك التاج قد تضعضع وتضرر كونه كان محفوظا في صندوق يستعمل لحفظ قناني البيرة اليابانية من علامة (أساهي)، ونشرت جريدة التايمس اللندنية صورة ذلك الحفل في السادس من شهر تشرين الأول تبين أن كل الصفوف الثلاثة من المشاهدين كانوا من الأنكليز ولا عراقي بينهم.

---

[1] العانة عملة هندية تساوي خمسة فلوس وكانت متداولة في العراق في تلك الفترة.

حتــى الدســتور العراقــي وضــعه المحــامي البريطــاني (أدورد كارتر).

وهكذا أسس المحتل حكومة (ديمقراطية) من أتباعه تعمل تحت إشـرافه. وأخـذت الأمـور تسـتقر تـدريجيا إلـى أن انتهـى الانتـداب البريطاني على العراق عام 1932.

امتعض سيف الدين من سرد كل تلك الأحداث معلقا:

- قابل أنا جاي من الهند؟

- اترك التفاصيل عزيزي نديم ولا تصدع رأسي بها وادخل في لب الموضوع فكلها سوالف قديمة ملّ منها العراقيون.

طيب بعد أن استقر الحكم،أخذت الزراعة تنتعش فتحسنت أمور النـاس، ونـال سلمان نصيه من هذا التحسن فكف عن السفر، وفتح محلا للصياغة في سوق المدينـة الرئيسي قريبا من الحي اليهودي، وظل يكافح فيه لسد نفقات الأسرة.

ظـل سـلمان وطيلـة أوائـل الثلاثينيـات يعـيش فـي الغرفـة التـي استأجرها في مدينة قلعة صالح، فكل ما يحصل عليه في ذلك الدكان الصغير من نقود لم يسمح له باستئجار دارا كاملة رغم رخص إيجار الدور في تلك المدينة.

تقع مدينة قلعة صالح على يسار نهر دجلة، في منتصف الطريق

بين مدينة البصرة والعمارة، وإن كانت الأخيرة أقرب وتحسب عليها إداريا. تحيط بالمدينة بساتين النخيل المكتظة من كل صوب.

الطريق المعبدة التي تربط البصرة بالعمارة تقع في الضفة الأخرى من النهر.

وظلت مدينة قلعة صالح ترقد مطمئنة وسط بساتين النخيل تلك، تربطها بالضفة الثانية (عبّارة) كبيرة صنعت من صفائح الحديد، وكأنها فلك كبير.

ربطت تلك العبارة بأسلاك حديدية من جهتي النهر. وبمعونة تلك الأسلاك والعتلة التي تدار يدويا في وسطها، راحت العبارة تقطع النهر جيئة وذهابا عشرات المرات يوميا.

كانت بلدية المدينة تؤجر هذا الجسر المتحرك سنويا لبعض المتعهدين لقاء أجر محدود، وهؤلاء بدورهم يأخذون أجورا من الناس لإيصالهم وأحمالهم إلى الضفة الأخرى عبر دجلة.

كانت غرفة سلمان مطلة على تلك العبارة، والتي أصبحت السبب الرئيسي في تركه العيش في تلك المدينة الحديثة، والتي لم يمض على بنائها قرن واحد، فأخذت اسمها من اسم أحد القادة العثمانيين.

ترك سلمان العيش في تلك المدينة ليعيش بعيدا عن تلك العبارة في قرية أو في مجموعة بيوت سيأتي الحديث عنها.

سكن أحد مجانين قلعة صالح وهم كثر بالمناسبة، وكان اسمه (جلوف) غير بعيدا عن تلك العبارة، وسط السوق.

جلوف هذا شاب في العقد الثاني من العمر، دمثا مسالما كان عاشقا لتلك العبّارة، يقطع النهر عليها مئات المرات دون ملل، لا يأخذ أحد منه أجرا لتنقله الدائم رفقا به قبل كل شيء، وربما تبركا به فهو من السادة (آل البيت) حتى أصبح جلوف جزء من تلك العبّارة وكأنه عتلة فيها.

في ذات يوم عبرت امرأة دجلة على تلك العبارة وعلى صدرها رضيعها، وصادف عبور سلمان معها إلى الضفة الأخرى لقضاء عمل طارئ.

كان الرضيع يصرخ بألم عجزت أثداء الأم عن تهدئته، أو إسكاته، فحارت به المسكينة وسط هذا النهر الهادر.

تبرع جلوف وعرض خدماته على الأم متعهدا بإسكات الرضيع. أعطته الأم رضيعها بعد أن عجزت والذين من حولها وحتى سلمان من إسكاته.

وقد أسكته جلوف بالفعل، ولكن إلى الأبد.أخذ جلوف الطفل بين يديه بتودد وعطف وألقى به إلى الماء تاركا أمه المذهولة تلطم، وتندب حظها، وبعد أن تمالكت نفسها، شدت عباءتها على وسطها وراحت تلطم على طريقة نساء العمارة مرددة أهزوجة ارتجلتها

- (مو منك هايه يجلوف، جا هايه من الله موداية).

لم يستطع سلمان عمل شيء لإنقاذ الطفل، وكل ما استطاعه هو والآخرون منع هذه الأم الشابة المنكودة من أن ترمي نفسها وراء رضيعها، فنهر دجلة في ذروة فيضانه، وهكذا وبكل بساطة ابتلعت أمواج النهر التي كانت تهدر كأنها التنين ذلك الرضيع وكأنه لم يكن.

لم تغادر صورة الطفل وأمه خيال ووعي سلمان، فراحت تؤرقه تلك الصورة المؤلمة كل ليلة، فقرر ترك تلك الدار التي كانت تطل على العبارّة والتي ظلت تذكره بتلك الحادثة الرهيبة.

كان سلمان من القلائل الذين يجيدون القراءة والكتابة في قلعة صالح في ذلك الوقت، وبذلك عدّ من المثقفين بمقاييس ذلك الزمان، وأخذت تربطه علاقات طيبة مع موظفي تلك المدينة الصغيرة والذين لم يكونوا أكثر ثقافة منه.

عن طريق تلك العلاقات علم أن (القائم مقام) الجديد ولقبه الصوفي، ينوي إجراء إصلاحات عصرية في المدينة، من فتح مدارس وشق طرق وإنشاء حدائق عامة، لذا فسوف تتبدل خارطة المدينة.

كانت قلعة صالح تمتد مع نهر دجلة شرقا. يفصلها عن النهر شارع (كورنيش). ولكون بساتين النخل الممتدة خلف المدينة تأخذ مياه السقي مباشرة من دجلة عبر أنهر حفرت عشوائيا، لذا أصبح

الكورنيش عبارة عن شارع تقطعه عشرات المعابر التي مدت من جذوع النخيل، تجري من تحتها أنهار اختلف عرضها حسب مساحة البستان الذي ترويه.

قرر (القائم مقام) طمر كل تلك السواقي وحفر نهرا كبيرا شمال المدينة يروي تلك البساتين من الخلف، ويعيد بناء طريق الشاطئ بشكل حضاري.

بعد أن أخذ الموافقات من السلطات العليا في بغداد، وضع خطة للمباشرة بتنفيذ مشروعه والذي أسماه نهر المجرية.

بعد أن تم تنفيذ المشروع، ظهرت قطعة أرض كبيرة شمال المدينة تكفي لإقامة قرية صغيرة عليها.

طلب سلمان من (القائم مقام) بيعه قطعة الأرض تلك لإقامة حي للمندائيين عليها يوفر لهم حرية العبادة بعيدا عن عيون ومضايقات الفضوليين.

راقت الفكرة للطوخي وهو الرجل المتحضر فقدم طلبا موقعا من قبل سلمان وذيله الطوخي بحاشية فيها تزكية لتلك الطائفة، ورفعه إلى الملك، مع رجاء بأن تمنح تلك الأرض لهذه الطائفة التي تعتنق أقدم الأديان التوحيدية في التاريخ.

هكذا، وبعد أخذ الموافقات المطلوبة تم إعطاء تلك الأرض التي

أفرزتها ألدوله، والتي تبعد كيلومتر واحد شمال المدينة لهؤلاء المندائيين، وبأسعار رمزية وسجلت بأسمائهم في دوائر الطابو.

قام سلمان بمتابعة الموضوع بكل جدية ونشاط وأقنع إخوته ونسائبه في التعاون فيما بينهم لبناء دور لهم، ومعبدا على تلك البقعة الجميلة المعزولة عن ضوضاء المدينة، والتي تحيطها بساتين النخيل. فتوفر لهم حرية الأرتماس بماء النهر وإقامة شعائرهم فيه دون منغصات المدينة(*).

تحقق لسلمان ما أراد، وتم فرز تلك القطعة إلى أربعة وعشرين دارا، على عدد حروف الأبجدية المندائية(**). فقام كل واحد من المالكين الجدد، في تشييد داره حسب رغبته، وحسب إمكانياته المادية. وقد تعاون الجميع على ذلك، الغني منهم يساعد الفقير، وأن كان لا يوجد بينهم غنيا بمعنى الكلمة، ولكن الفقراء كانوا كثرا.

اتفق الجميع على أن يبدأ البناء في أول يوم أحد من شهر نيسان ويوم الأحد هو اليوم المبارك عند المندائيين.

(*) الشعيرة الأساسية في الدين المندائي هي الأرتماس في الماء الجاري ولا يمكن أن تكتمل أهم طقوسهم إلا به وكانوا يتعرضون لمضايقات المتطفلين عندما كانوا يمارسون تلك الطقوس في المدينة.

(**) اللغة المندائية هي أحد فروع اللغة الآرامية مثل العربية والعبرية وكانت تستخدمها مجموعات كبيرة في تلك المناطق في قديم الزمان.

جاء يوم الأحد المنشود فترك الجميع أعمالهم وتوجهوا مع نسائهم وأطفالهم إلى أرض «الميعاد» الجديدة.

أخذت أهازيج الرجال ترتفع لتختلط بزغاريد النساء، وصراخ الأطفال، الذين لم يفقهوا سببا لكل هذه الضجة، والتي عكرت صفو تلك البقعة الهادئة. حتى أن طيور الفاخت والتي لم تشهد مثل ذلك الصخب من قبل، راحت تصفق بأجنحتها بعد أن ابتعدت محلقة تاركة أعشاشها. أما كلاب بيت رسن والتي تحرس بساتين النخيل من العابثين واللصوص بشراسة، فولت هاربة بعد أن شاهدت هذا الحشد الكبير، وشعرت أن المسألة جدّ ولا تحتمل الهزار أو النباح الكاذب.

خططت البيوت بمساعدة قصبة غليظة وبعض الحبال. ثم أخذت معاول الرجال الأشداء تشق الأرض التي استسلمت لهم بكل دعة.

كبرت الحفر أمام البيوت ونقل إليها الطين (الحريّ) من جانب النهر على الحمير من شمال القرية.

وانبرت مجموعة من النسوة وفي مقدمتهن حيهن، بعد أن رفعن ثيابهن إلى الركبة وتحزمن عليها بعباءات من الصوف، ورحن يخلطن أعواد التبن الذهبية بالطين في تلك الحفر.

أخذت السيقان البيض تغوص في خميرة الطين في رقصة جماعية بديعة الإيقاع.

الرغبة تظهر الإبداع!

عندما تنظر إلى حيهن، وسط معركة البناء هذه، لا تصدق إنها ذات المرأة المدللة، التي أرهقت سلمان بدلالها. لقد كانت صلبة قوية ومبدعه، تقود مجموعة النساء في عمل الطين وكأنها تحارب.

بعد أن يتجانس الطين تحت أقدام النساء ينقل على شكل كرات كبيرة لتشاد منها الجدران.

إن نشاط حيهن الخلاق والغير عادي، لم يكن صدفة أو مجرد ندم من حيهن على معاملتها الصارمة لسلمان ولا صحوة ضمير، فوراء ذلك النشاط حتما قصة أو سبب وجيه:

عندما كانت حيهن تعيش مع سلمان وطفليها في الغرفة الوحيدة في الدار التي نزلوا فيها في قلعة صالح حيث أنجبت طفلها الثالث، حدث أن كان رضيعها الصغير نائما في المهد، فنزل إليه ثعبان أسود من سقف الغرفة، وراح يلتف على جريد المهد ليصل إلى الرضيع، قفزت الأم إلى طفلها كالملدوغة وحملته وخرجت به من الدار راكضة، ولكن الثعبان ظل يلاحقها طالبا الطفل، حتى وصلت إلى إحدى ورش بناء الزوارق الخشبية القريبة من النهر. وهناك وتلبية لصراخ الأم اجتمع الصناع حول الثعبان وبأيدهم الفؤوس فقتلوا الثعبان.

عندها نذرت حيهن إن يبني لها سلمان بيتا تعيش فيه، سوف تتحزم وتخلط طينه بقدميها وقد وفت بنذرها بكل إخلاص.

أما العجائز اللاتي شهدن معركة البناء تلك، فقد انشغلن بالقدور، والطبخ ومراقبة الصغار ومنعهم من الاقتراب من النهر خوفا عليهم من الغرق.

وهكذا استمر العمل كل يوم حتى أخذت الجدران ترتفع، فظهرت في ساحة البناء، جسور من خشب (الجندل) وحصران من القصب وشبابيك وأبواب من خشب التوت. وكانت تلك الأبواب تقفل بمزلاج مصنوع من الخشب أيضا.

بعد أن انتصبت الجدران بأبوابها وشبابيكها، ومدت جسور الخشب فوقها بمسافات قصيرة متكررة نشرت حصران القصب فوقها، وأخذت النسوة في رشق تلك السطوح بالطين الحر المداف جيدا بالتبن، وبطبقات عدة لتجعل حبات المطر تنزلق بسهولة ويسر وبانحدار واضح، لتصب في مزاريب صنعت من الصفيح لتطرد المطر بعيدا عن الجدران.

ذلك النشاط المنظم اليومي، والإصرار والأمل، وشمس العراق الحارقة جعلت من الحلم واقعاً، فظهرت بعد أسابيع قليلة قرية جميلة تحتضن شلة متحابة من البشر سميت باللطلاطة.

- من أطلق عليها هذه التسمية الغريبة؟

- لا أحد يجيبك.

- ربما جاءت التسمية من (لطلاط) ماء دجلة الذي كان يداعب تلك الشواطئ الجميلة.

كانت مياه دجلة خجلة عند مداعبتها الجرف العالي هناك، فلا هي تفيض وتغرق المكان، ولا هي تكف عن تلك المداعبة وتترك الجرف وشأنه، فسميت باللطلاطة.

لقد كانت مياه النهر تلك هي الضرع الذي سقى سكان تلك القرية طيلة عمرها، والذي لم يمتد طويلا للأسف.

كان نصيب سلمان من تلك القرية بيت على شاطئ دجلة فيه ثلاث غرف وطارمة مسقفة. والطارمة كانت أيضا مسكنا للبقرة «الدبسة» شتاء، وفي ظهر الدار مساحة واسعة من الأرض غرس فيها سلمان بستانا من أجود أنواع النخيل، من قنطار وبرحي وبريم وديري وخضراوي وجبجاب وتبر زل وحلاوي وغيرها.

زرع سلمان أربعة وعشرين فسيلة نخل، على عدد الدور في تلك القرية وعلى عدد حروف الأبجدية المندائية، التي تبدأ بالألف وتنتهي به ربما تيمنا بتلك الحروف والتي تعتبر مقدسة عند المندائيين وهي تلك النخلات التي كنا عندها حيث تجمع الشباب.

كافحت حيهن في سقي تلك الفسائل بمشربيات من النحاس تسمى (مصخنة). وكانت عملية زرع ذلك البستان وسقيه والاعتناء به، من المهمات الشاقة على النساء، لا تقدر عليها إلا القويات منهن. وهنا ظهر معدن حيهن، فقد كانت تنقل الماء من النهر بالمشربيات على الأكتاف مرتين في الأسبوع في البداية، ثم مرة واحدة كل يوم أحد، إلى أن شبت الفسائل معانقة السماء بسعفها الطري. فازدهر البستان وراح النخل يؤتي ثمارا شهية عم خيرها على أهل اللطلاطة كلهم. رطب البستان هذا كان على موائد الفطار في كل بيت، وحلان الخضراوي فاكهة الشتاء المحببة، ودبس الدمعة المعصور من التمر والذي يجمع قطرة بعد أخرى، بعد أن يوضع فوقه الحلان المنسوج من الخوص المملوء بالتمر المكبوس، والتي شارك في نسجها الجميع حتى الأطفال.

كان ذلك الدبس النقي يتبلور(يجرش) شتاء في صفائح التنك، فتنحني في داخله ملاعق الأكل، إن لم تنكسر عند الغرف منه.

والخلال المطبوخ من البريم والجبجاب كان سلوى للجميع في كل الأوقات، فقد كانت عذوق الخلال تقص وتطبخ وتجفف على السطوح. لم يكن إعداد الخلال المطبوخ مسألة صعبة فشمس العراق تجفف حتى العظام تحت جلدها.

أما تمر الديري فكان يترك في عذوقه على الشجرة، إلى أن

يجف، ثم تقص تلك العذوق وتعلق داخل الغرف.

وقبل أن يسكن الناس تلك البيوت قامت بلدية المدينة بتعديل شوارعها الثلاث بماكينة ضخمة، ثم بإيصال الكهرباء إلى الشوارع، فأضاءتها بمصابيح صغيرة ارتفعت عاليا فوق أعمدة من حديد الشيلمان، ولكنها لم تجرأ على دخول الدور!

بعد أن نقل القائم مقام (الطوخي) إلى مدينة ثانية، أصبح مدير البلدية واسمه «زنيد» يدير أمور قلعة صالح، وزنيد هذا كان جاهلا ومتعنتا برأيه لا يقبل المناقشة في قرار اتخذه، وهو الذي جعل الكهرباء لا تدخل البيوت حديثة البناء، فراحت تضاء بالفوانيس و«اللالات» المحلية الصنع.

وعندها قال سلمان شعرا :

غمج يا جلعة جي جسر ما بيج من غرب الطوخي زنيد حكم بيج

قبل أن ينتهي الخريف كانت البيوت الجديدة قد كنست ونظفت، وجاءت كل أسرة بما تملك من الأثاث، وهو بعض سجاجيد منسوجة يدويا، وصناديق من الخشب صبغت بألوان فاقعة وطعمت ببعض القطع من السراميك نقشت عليها في الغالب صورة لـ(مونوليزا) العراق وهي فتاة جميلة من أهالي مدينة كركوك راحت العصبة المزينة بالذهب تضفي عليها جمالا آخاذا فكانت تعد القمة في الجمال،

وبعض القدور وأسرّة صنعت من جريد النخل.

انتصبت «التنانير» في كل بيت وجهزت المواقد ومعالف البقر، وتصدرت الدور جرار الفخار، التي كانت تصفي الماء وتبرده.

كانت تلك الجرار والتي تسمى (حب – بالكسرة –) تسع ما يقارب نصف متر مكعب من الماء، وكان تحتها دائما يوضع وعاء من الفخار أيضا يسمى (الحبانة) حيت تتساقط حبات الماء الواحدة بعد الأخرى وتسمى «بالناقوط» وبعد عملية الترشيح من الجرة الكبيرة يكون ماء الناقوط صافيا من أية شوائب وباردا ولا ألذ منه وقت الصيف.

كثر ركض الأطفال وزاد صخبهم في المكان الجديد، وكانوا يتجنبون النهر أول الأمر، إلى أن اعتادوا على سكنهم الجديد، وما أن جاء الصيف الثاني حتى سكنوا النهر وكأنهم حيوانات برمائية.

قام الكبار بعمل أرصفة على النهر (مسنايه) أمام الدور التي تقع على النهر لتسهل النزول إلى النهر والتزود منه بالماء ولغسل الأواني، لم يكن ماء الشرب يؤخذ من أمام الجرف مباشرة بل من على بعد عدة أمتار، أي من (لب) النهر.

لم يقترب الأطفال من بساتين النخيل التي تحيط باللطلاطة، خوفا من الكلاب الشرسة حيث كانت تحرسها بكل يقظة واستعداد للإنقضاض على كل متطفل، وكانت تتجمع في العادة عند الناعور وسط البستان

الذي يفصل اللطلاطة عن قلعة صالح.

كان الناعور الذي ينقل ماء دجلة للبستان يدور بلا نهاية بفضل حمار متوسط الحجم ربط إلى عمود الناعور معصوب العينين، فلم يعرف المنكود إلى أين ومتى ستنتهي مسيرته وظل بأمل أن يتحرر منها يوما ما إلى أن يموت ثم يستبدل بغيره!

ولكون الطريق التي تفصل القرية الجديدة عن المدينة طويلة، إذا ما قيست بخطوات الأطفال الصغار، ولكونها محفوفة بمخاطر الكلاب، كان الصغار يذهبون للمدرسة جماعات، وكان الأكبر سنا منهم يرافقون الصغار في تلك المسيرة اليومية على مضض، فلكل منهم هواجسه واهتماماته. كانوا جميعا يسيرون بمحاذاة النهر متجنبين الطريق السالكة وسط البستان، وهنا تتعدد الأسباب، الصغار يخشون الكلاب رغم إغراءات الرطب المتساقط من بعض أشجار النخيل فيفترش الأرض على شكل قرص، فتراهم في العادة يفضلون طريق الشاطئ مجبرين.

أما الكبار فلهم أيضا ما يخشون منه في سلوك طريق البستان فقد تربع الطنطل(*) على السدرة التي توسطت البستان فكانوا جميعهم

(*) الطنطل مخلوق خرافي تقول المعتقدات انه يسكن شجر السدر ويلبس البياض ويرمي الصغار والكبار بالحجر ويؤذي من ينفرد به.

يعـودون مهـرولين إلـى طريـق النهـر عنـدما يصـرخ أحـدهم طلـع الطنطـل، أو ذاك الطنطـل، وهكـذا كـل يـوم إلـى أن تـأتي عطلـة المدارس، وبعد أن تظهر نتائج الامتحـان يرجـع من كـان ناجحـا عبـر البستان غير مباليا بالكلاب ولا بالطنطل، ليبشر أمه بنجاحه ويحصـل على هديته. أما من فشل في امتحانه فيعود للبيت سـالكا طريقـا ملتويـة تدور حول المدينة ليصـل إلـى اللطلاطـة عبـر أرض سبخة خاليـة من الأشجار، أصبحت لاحقا مقبرة للقرية حيث أخذت شواهد القبور تنمـو عليها بتتابع.

أخـذ سـكان هـذه القريـة يرتبـون حيـاتهم ببسـاطة وقناعـة لا كمـا يشـتهون، ولكـن بمـا يسـتطيعون فكانـت حيـاتهم سـهلة وسـعيدة رغـم الضائقة الاقتصادية التي عمت البلد لاحقا.

كان الرجال المكلفون بإعالـة هذه المجموعـة من البشـر يعملـون في الغالب في الحـرف اليدويـة. وكـانوا مـاهرين فيهـا. منـهم الحـدادون الـذين لا يسـتغني الفلاحـون عـن جهـودهم فـي إصـلاح المحاريـث والفؤوس والمناجل وغيرهـا مـن أدوات الزراعـة، ومـنهم مـن امـتهن صـناعة الـزوارق، ولكـن الغالبيـة مـنهم امتهنـت الصـياغة وهـم الـذين عملوا فـي المدن الكبـرى كالبصـرة وبغداد، وبعضـهم سـافر أبعد مـن ذلك إلى مدن الخليج العربـي كالمنامـة ومسقط وغيرهـا حتـى وصـلوا مدينة بوبي الهندية.

المندائيون على العموم كانوا هم الأكثر ثقافة بين شرائح مجتمع قلعة صالح فالعديد من المعلمين هم من المندائيين الذين سكنوا اللطلاطة.

بعد أن حصل شبابهم على التعليم، ظهر فيهم لاحقا المدرس والطبيب والمهندس، وبذلك أصبحت مكانتهم الاجتماعية مهمة ويحظون بتقدير الجميع في قلعة صالح، وحتى في المدن الأخرى مثل العمارة والبصرة وبغداد أيضا، فأول رئيس لجامعة بغداد كان من المندائيين، وهو الدكتور عبد الجبار عبد الله، عالم الأنواء الجوية البارز، وأحد تلامذة أينشتاين.

أشادت هذه المجموعة لها معبدا في اللطلاطة بني من الطابوق، وكانت شبابيكه من الزجاج. فكان نور الشمس يعم المكان، وأحاطته أزهار الجوري والرازقي، فكان عبق زهورها متعة للزائرين، والفرحة يتردد صداها بين جدرانه في أعراسهم، وطقوسهم الدينية الجميلة كل يوم أحد تقريبا وخاصة في أيام الأحد وفي المناسبات الدينية والأعياد.

نال معبد اللطلاطة شهرة واسعة بين دارسي المندائية في أوربا، فأخذ يرتاده الباحثون والمستشرقون الأجانب الذين ينقبون بين الأحياء عن الفرق والأديان القديمة المندثرة.

كانت مجالس السمر شبه دائمة كل ليلة في صيف اللطلاطة، حيث يفرش شارع النهر بالحصران فيجتمع الرجال والنساء والأطفال كل مساء، وعندها يقوم ضوء الفوانيس بالرقص على أمواج دجلة فينكسر على أغصان شجر الصفصاف الذي ترك أغصانه تسبح في الماء ليل نهار، وعندما يكون القمر بدرا فلا ترى من ضوء الفوانيس إلا بصيصا.

يقضي السكان وطرا من الليل بالقصص والأحاديث المختلفة، والأطفال يغفون في أحضان أمهاتهم في العادة قبل أن تنتهي أي من تلك القصص فلا يعرفون نهاية لها.

بعد أن استقرت الأمور في القرية وكبر الأولاد، ترك سلمان سوق قلعة صالح، فالرزق فيه ظل شحيحا، وعاد إلى هوايته القديمة في مطاردة لقمة العيش، مرتحلا بين القرى. ربما تحجج بضنك العيش في قلعة صالح ليعيش حياة الحرية والترحال بين القرى والذي اعتاد عليه.

سافر سلمان بعيدا إلى الغرب هذه المرة. ولم يرجع من تلك السفرة بعدها وكأنه استطاب الهواء الغربي فمات هناك وهو لم يبلغ الخمسين من العمر بعد، ودفن بعيدا عن أهله ولم يرجع إلى اللطلاطة غير نعيه وأدوات عمله وقليل من النقود والتي لا تسد الحاجة.

مع كل هذه الأغراض ديوان من الشعر الشعبي خط في دفتر

كبير، تحول مع الوقت إلى ذكرى فلم يعثر عليه إلى اليوم.

ظلت اللطلاطة وأهلها، وإلى وقت طويل يتداولون القصص والأحاديث بإعجاب وفخر عن سلمان مؤسس هذه القرية التي ارتبطت بذاكرة المندائيين إلى اليوم.

أوقفت السيارة قرب إحدى مقاهي الطريق في مدينة علي الغربي لنأخذ قسطا من الراحة.

بعد أن أخذ سيف الدين أنفاسا عميقة من السيجار الكوبي راح يسترجع بعض المعلومات والأحداث عن ثورة العشرين مصححا بعضها مضيفا عبارة هنا أو هناك، فقد أثاره الموضوع وترك الإصغاء لأحداث اللطلاطة.

الحديث هنا لسيف الدين:

- في العشرين من حزيران عام 1920 قام الضابط السياسي البريطاني، في منطقة الرميثة (في الفرات الأوسط) باعتقال الشيخ شعلان أبو الجون، زعيم عشائر (الزوالم)، احد فروع قبيلة بني حجيم وحبسه بسجن مدينة الرميثة، بحجة امتناعه عن دفع ضريبة الأرض للمستعمرين الجدد، والحقيقة كانت بسبب مواقف الرجل المعادية للاحتلال.

وبعد اعتقاله قامت مجموعة مسلحة من رجال العشيرة وفي ذات

اليوم بالهجوم على السجن وحرروا رئيس عشيرتهم منه.

راحت الأحداث تتطور، فأخذ الثوار يقطعون طرق المواصلات، ففجروا السكة الحديدية التي تربط الجنوب ببغداد لأكثر من مرة وفي أماكن عدة.

وهناك أحاديث كثيرة عن بطولات ثوار ثورة العشرين.

ففي مدينة سوق الشيوخ الغافية بين غابات النخيل والتي يسقيها نهر الفرات بمائه العذب عندما كان في أوج عظمته في تلك الأيام.

هناك بنا الأتراك قلعة كبيرة على ضفة النهر، وبعد الاحتلال البريطاني أصبحت تلك القلعة ثكنة لجنود بريطانيا العظمى، فشكلت تلك القلعة عقبة حقيقية في طريق زحف الثوار من العشائر إلى مدينة سوق الشيوخ فقد كانت محصنة بشكل يصعب اقتحامها.

بعد مناوشات عدة بين الجنود البريطانيين المتحصنين بالقلعة ومجموعة من الثوار بأسلحتهم البسيطة سقط فيها العديد من الثوار الشباب دون أن يحققوا تقدما يذكر. عندها انبرى رجل منهم اسمه (حريجة) أو ربما سمي كذلك لاحقا. جمع هذا الرجل أكواما من الشوك الجاف وربطها على جسمه حتى أصبحت كرة كبيرة الحجم ثم أشعل النار بكرة الشوك هذه وراح يعدو صوب القلعة.

كرة من نار تسير صوب القلعة بسرعة وجنون أذهلت المدافعين

عن القلعة فاقتحمها الثوار وسقطت بأيديهم.

انفتحت قريحة سيف الدين وراح يسرد معلومات مشوقة أخرى عن تلك الثورة ولابد انه قد قرأ الكثير عنها.

يتندر العراقيون على سكنة مدينة الناصرية كونهم ينتسبون إلى (الشجرة الخبيثة) والشجرة هذه موجودة بالفعل ولكنها ليست خبيثة كما يشاع عنها إنما هي كريمة كرم أهلها.

كانت هناك شجرة كبيرة جدا من التوت ربما نمت على ضفة الفرات قرب الناصرية، وكان الثوار يعتلونها ليلا ويختبئون بين أغصانها فلا يراهم الجنود البريطانيون، وعندما يمطرون الجنود بلوابل من رصاصهم فيسقط العديد من الجنود دون أن يعرفوا مصدر النيرات التي راحت تحصدهم.

ظل ذلك الكمين يتكرر ويكلف القوات البريطانية خسائر بشرية كثيرة حتى اكتشفوه أخيرا، فأمر القائد البريطاني بقطع تلك الشجرة من أصلها وأطلق عليها اسم الشجرة الخبيثة.

- تفضل أخ نديم أكمل قصتك فمآثر ثورة العشرين لا يسعها كتاب واحد. وراح يحثني على متابعة سرد قصتي بعد أن أفرغ ما في جعبته من المعلومات.

مادمت قد بدأت الحديث عن تلك الثورة يا سيف الدين أرى من

الأفضل إن تكمل حديثك عتها فنحن (هنود) كما تعلم وحديثنا عن اللطلاطة حديث (شراگوه) ولن ينتهي.

استمر صاحبي في حديثه عن أحداث ثورة العشرين والظاهر إن الحديث عنها قد راق له وقد انفتحت قريحته:

- لعبت المرأة العراقية كذلك أدوارا بطولية في شد أزر الثوار في تلك الثورة.

يحكى عن إحدى نساء الفرات الأوسط بعد أن أحجم الثوار عن التقدم في مجابهة الجنود البريطانيين المدججين بالأسلحة الحديثة في إحدى المقابلات، تقدمت هي الصفوف وراحت تزغرد وتهتف:

(يا خاله بسدچ لبديني) أي أخفيني خلفك يا خاله مما أثار نخوة الرجال فتقدموا وقاتلوا ببسالة فكسبوا تلك المعركة.

وامرأة أخرى عندما اعتقلت القوات البريطانية أخاها بعد أن فجرَ جسرا في طريق السماوة راحت تهتف:

(بس لا گال الهم موش آنا) أي فقط لا ينكر قيامه بذلك الفعل وعندها سوف تحرم هي من التفاخر ببطولة أخيها.

قمعت ثورة العشرين من قبل الانكليز بوحشية لم تعهدها البلاد من قبل. فالحقول دمرت تماما، وقتل آلاف من الفلاحين والنساء والأطفال وسويت قرى بكاملها مع الأرض.

إضافة إلى القوة والقمع، استخدم المحتل أساليب الحيلة والدعاية وتجنيد العملاء، حتى راحت تروى القصص عن تلك الأساليب منها:

أن القوات الغازية أطلقت إشاعة في مدينة النجف بأن من لم يلق سلاحه سوف يعدم في حالة العثور على ذلك السلاح معه، وسوف لن تنفع عملية إخفاء السلاح الناري، فإن لدى الجيش البريطاني قطط حديدية تكتشف السلاح أينما يخبأ.

وهكذا أصبحت البنادق مرمية في الطرقات في اليوم التالي للنداء.

ثم انطوت صفحة من نضال العراقيين ضد المحتل البريطاني.

وانتهت استراحتنا في مقهى علي الغربي فواصلنا طريقنا إلى بغداد.

بعد أن تعدل مزاج سيف الدين ولا أعرف بالضبط لماذا، هل كان ذلك بسبب قدح الشاي المثير للقرف؟

ربما حديثه عن ثورة العشرين أثار شهيته من جديد لسماع نهاية قصة اللطلاطة! لا يهم فقد شجعني مزاجه الرائق وهمته في متابعة الاستماع لقصة اللطلاطة، فانطلقت أنا في ممارسة هوايتي في السرد من جديد.

بعد أن غادر سلمان هذه الدنيا بلا أبالية, ترك همومها لزوجته

فراحت تعاني الأمرين في تربية أطفالها الذين تيتموا قبل أن يشتد عودهم بعد.

الجزء الثاني

حيهن[1]

إلى الشرق من ميسان يجري نهر الكرخة فيصب في هور الحويزة، وعلى منتصفه تقع مدينة الحويزة، التي تبعد حوالي 90 كيلومترا، عن الأحواز شمال غرب مدينة المحمرة.

كانت الحويزة عاصمة الدولة المشعشعية في أيام المغول. أبدل اسمها الإيرانيون اليوم إلى (دشت ميشان).

في هذه المدينة التي كانت كبيرة ذات يوم، تقاسم بعض المندائيون العيش مع أهلها العرب من عشائر طي، ولكون المندائيين رعايا دين توحيدي قديم، ورد ذكرهم في القران الكريم تسامح الجميع معهم، وتركوهم يعيشون بسلام في تلك المدينة. فشيدوا لهم معبدا (مندي) فيها، وكانوا يمارسون طقوس الإرتماس في نهر الكرخة بكل حرية.

---

[1] حيهن اسم تسمى به الإناث نادر الانتشار، تجده مستخدما في المناطق الجنوبية من العراق في الغالب.

كانوا يرددون اسم الله في تلك الطقوس بلغة أخرى غير العربية أو الفارسية هي اللغة المندائية. تلك اللغة التي كانت سائدة في تلك الأصقاع قبل ألفي عام[1].

في تلك المدينة ولدت «حيهن» في أواخر القرن التاسع عشر، أو في بدايات القرن العشرين وتزوجت فيها لتنتقل بعدها للعيش مع زوجها سلمان الذي اختاره لها أبوها.

كان والد حيهن رجل الدين المندائي الأكبر مرتبة في تلك الأصقاع، وكان قد أنشأ بعض أولاده على طريقته فأصبحوا رجال دين مرموقين هناك قبل أن يهربوا منها إلى العراق ويلتحقوا بابنتهم وزوجها في قرية من قرى جنوب العراق،

بعد أن فشلت ثورة الحويزة ضد الظلم الفارسي عام 1928، تعرض المندائيون هناك للقمع والإبادة، ولم يشفع لهم توحيدهم أو مساهمات أجدادهم في بناء الحضارة في تلك الأصقاع.

من يدري، ربما كان(بار أنوش) أحد الأجداد الأوائل لحيهن، والذي عاش في الأحواز في عهد الملك شابور.

(أشاد بار أنوش، هذا الرجل المندائي جسرا على نهر الكارون

---

[1] وجدت آثار وبنقود مدونة بلغة شبيهة جدا بالمندائية تعود إلى فترة الدولة الفرثية في جنوب غرب إيران.

طوله 435 ذراع، وعرضه ستة أذرع، وبفتحات بلغت 15 فتحة في مدة لم تتجاوز الثلاث سنين).

عاشت حيهن وأمها في بيت سلمان سوية بعد أن مات سلمان وترملت فأصبحت وحيدة مع أطفال لا يزالون صغارا.

أصبحت تلك المرأة الوافدة (طبيب) اللطلاطة والقرى المجاورة لها، بما لديها من تجارب في معالجة بعض الأمراض، وبما تملكه من الخرز والأحراز، التي كانت تساعد بها النساء الحوامل وغيرهن ولا تتقاضى أجرا على ذلك وإنما لوجه الله.

ولكون المرأة محسنة للجميع وتتكلم اللغة الفارسية في مجتمع شيعي إضافة إلى اللغة العربية وتتكلم لغتها الأم المندائة أي إنها تتقن ثلاث لغات، أضفى عليها ذلك هاله من التبجيل فذاع صيتها بعيدا.

كان أخوة حيهن وأغلبهم رجال دين، يحيطون بحيهن في اللطلاطة بعد أن استقروا فيها، ويساعدونها في عيشها كونها أختهم المدللة والتي ترملت ولا يزال أولادها صغارا.

عند الحديث عن مناخ العراق، كان معلم الجغرافيا يلقن التلاميذ الصغار، فيقول:

العراق يقع في ملتقى طرق الشرق بالغرب، وهو ذو مناخ قاريّ (حار جاف صيفا وقارص البرد ممطر شتاء).

نعم الشتاء هناك بارد جدا، وبيوت الطين في اللطلاطة وإن كانت ممتازة في فصل الصيف، إلا أنها لا تحمي ساكنيها من برد الشتاء القارص، مما يضطر الناس في الليالي الشديدة البرد إلى استخدام (مناقل) الحطب للتدفئة، والنوم تحت أغطية ثقيلة ذات ألوان وزخارف هندسية رائعة كأنها السجاد تسمى الواحدة منها (إزار ركم).

كانت العائلة كلها في بيت سلمان تنام في الغرفة الواقعة على الشارع الموازي للنهر، وكانوا يدخلون البقرة (الدبسة) في تلك الغرفة الواسعة لتنام معهم أحيانا، خوفا عليها من البرد إذا كان شديدا، ومن اللصوص اللذين أخذوا يغيرون على القرية من حين لآخر.

كان موقد النار يتوسط تلك الغرفة الواسعة التي تنام فيها حيهن وأطفالها، في إحدى ليالي الشتاء شديدة البرد، وكان حطب الموقد من كرب النخيل، وبضعة أغصان من التوت وبعد أن أخذت نار الموقد (المنقلة) ترسم لوحة بألوان قانية الحمرة بعد أن انقشع الدخان منها وتوهج جمرها.

وبعد أن غط الأطفال في نوم هادئ، وظلت حيهن وأمها يقلبن الأمور في حديث هادئ، عن مستقبل الأسرة، وكيف سيدبرن أمر إعالة الأطفال بعد أن رحل سلمان دون أن يترك شيئا يساعدهم في

تدبير عيشهم سمعت حيهن طرقا خفيفا على جدار الغرفة.

كان من عادة اللصوص في تلك المناطق أن يسطوا على الدور ولهم طريقة خاصة شائعة بينهم في السطو. فهم يدخلون الدور من خلال فتحة، يحفرونها في الجدار الطيني بخناجرهم المشحوذة دائما. وبعد أن يحفروا فتحة في الجدار يدخل اللص مؤخرته في تلك الفتحة خوفا على رأسه ممن قد يتربص به، ثم يدخل كامل جسمه، وبعد أن يدخل ويطمأن، يسرق ما يجده في تلك الدار، وما يقدر على حمله ويخرج من الباب الرئيسي، المقفول بمزلاج خشبي يعصى فتحه على الداخلين للدار لا الخارجين منها، وسكان الدار يغطون في النوم تحت تلك الأغطية الثقيلة.

استغرق حديث حيهن مع أمها وقتا طويلا، فالمشاكل معقدة والحديث تشعب، ولم يتبقى من الليل إلا الهزيع الأخير، ولكن دون أن يصلن إلى حلول عملية طبعا.

في تلك الساعة المتأخرة من الليل سمعت حيهن نقرا على الجدار، ثم تأكد لها أن أحدهم يحفر فيه، فقامت بهدوء وأحضرت محراك التنور، وهو سيخ طويل من الحديد يستخدم في تحريك الجمر داخل التنور لتنضج أرغفة الخبز فيه.

وضعت حيهن المحراث في الموقد، وزادت عليه الحطب واستمرت بالحديث مع أمها التي لم تسمع من الحديث شيئا بعد أن

غلبها النوم، وراحت تشخر بصوت مكبوت.

استمر الحفر في الجدار طويلا، فالجدار كان عريضا وطينه مداف بالتبن جيدا فكان متماسك جدا، وحيهن تنظر إلى الجدار بقلق وخوف وعينها على المسيخ.

أخذ السيخ يحمّر تحت وهج أغصان التوت الأبيض الذي غطت شجرته وسط دار سلمان.

بعد أن أنجز اللص المرحلة الأولى من عمله، وظهرت فتحته في أسفل الجدار، تسللت منها خيوط القمر البيضاء مع النسيم البارد، راح اللص يدس مؤخرته فيها ليلج الدار على عادته، حالما بصيد ثمين.

بعد أن أدخل كل مؤخرته تقريبا في تلك الحفرة ولم يبقى له إلا أن يدخل باقي جسمه، وفي تلك اللحظة، أخذت حيهن السيخ المحمر، وراحت تكوي يه مؤخرة اللص بكل قوة وثبات، فأخذ اللص يصرخ من شدة الألم محاولا الفرار.

لم يخرج اللص من تلك الورطة، إلا بعد أن أيقظت رائحة الشواء أم حيهن، واختلط صراخ الصغار المرعوبين من صراخ اللص الذي ولى هاربا.

تركت حيهن اللص يهرب ولم توقظ الجيران، وأعادت الأطفال إلى فراشهم ليناموا من جديد وكأنهم في حلم مزعج.

أغلقت حيهن تلك الفتحة بصندوق حديدي كبير كان يضم بعضا من أدوات عمل سلمان وكأنها تعاتبه على رحيله.

انتشر الخبر في اليوم التالي في المدينة كلها مما أغرى اللصوص بمعاودة الكرة للأخذ بثار صاحبهم.

بعد أيام من تلك المحاولة سرق أحد اللصوص وهو من القرية المجاورة بيت الشيخ آدم وهو الشقيق الأكبر لحيهن وكان هذا الرجل عالم دين ورع ومن (دراويش) الله،

كان أغلب الناس هناك يودعون عنده مصوغاتهم والثمين مما يملكون من متاع عند حاجتهم لذلك لأمانته ولكراماته.

في أحد الأعراس علمت بائعة العلف والتي تجلب البرسيم الطري لأبقار القرية بوجود أمانة ثمينة تحتوي على مصوغات وحجول من الفضة محفوظة في دولاب زوجة الشيخ في غرفة نومهم.

فأخبرت شقيقها، وهو لص فتاك محترف عن تلك المصوغات ومكانها.

سطا ذلك اللص على دار الشيخ آدم في تلك الليلة بغياب الرجل وزوجته وأخذ تلك الأمانة واكتفى بها ولم يطمع بشيء آخر غيرها.

عندما عاد الزوجان من سهرتهم التي كانت عند حيهن لطمأنتها وشد أزرها، تفقدت الزوجة الأمانة فلم تجدها فأخذت تلطم خدودها

وتصرخ، بينما ظل الشيخ هادئاً وراح يتذرع لربه بدعاء حار صامت غير مسموع.

كان ذلك يوما مشهودا في القرية وظلت القرية ساهرة إلى الصباح مرعوبة من غارات اللصوص لمدة ثلاثة أيام.

في العادة لا أحد يقرب هذا الرجل بمكروه، فالرجل ورع ومن أحباب الله وله كرامات يعترف بها الجميع.

بعد ثلاثة أيام جاء وفد من كبار عشيرة اللص الذي سطا على بيت الشيخ معتذرين من الشيخ الجليل لما ارتكبه ابن عشيرتهم وأعادوا له المسروقات كاملة طالبين منه السماح.

تبين بعدها أن اللص عندما عاد بغنيمته أركن بندقيته في الغرفة وراح يعرض غنيمته على أخته وهم فرحين بهذا الصيد الثمين.

في تلك الأثناء انطلقت رصاصة من البندقية أصابت الأخت وقتلتها في الحال فولى اللص هاربا تاركا غنيمته في مكانها.

و في ذلك الصباح أيضا رفس الحمار المحمل بالحشيش زوجة اللص الحامل وهى عائدة من حش البرسيم فأسقطت الجنين الذي في بطنها، وتصادف أن رأى أحدهم حلما مروعا في تلك الليلة وراح يقصه على أهله وهو مرعوبا مما رأى حيث أنه رأى أسرابا من الجراد الأصفر تغزو زرعهم وتعشش في البيوت، والناس في شدة وضيق من أسراب الجراد تلك. فتأكد لهم أن الكوارث ستحل بهم

حتما.

ذهب وفد من أكابر عشيرة اللص لاسترضاء الشيخ ودخلوا بيته وراحوا يستعطفونه بأن يعفو عنهم بعد أن أعادوا كل المسروقات وخروف صغير كنذر وترضيه للشيخ. وبعد ذلك لم تر اللطلاطة لصا بعدها قط.

عرض أحد إخوان حيهن بعد تلك الحادثة عليها الانتقال للعيش معه، لكن حيهن أصرت على أن يظل بيت سلمان مفتوحا.

أراد ابنها الكبير (قاسم) ترك الدراسة، والتي قطع فيها شوطا كبيرا، ليعمل ويعيل العائلة، ولكن حيهن أصرت على إرساله إلى بغداد ليكمل تحصيله في كلية الملكة عالية، والتي ذاع صيتها بعد أن ينهي تعليمه.

أخذت حيهن تشتغل هي وابنتها يساعدها الصغار في نسج الأطباق من جريد النخل، وصنع الحصران من سعفه، وبناء مواقد الخبز (التنانير) من الطين، وغزل الصوف، وحياكة الهمايين(*) وخياطة الرسته، وغيرها من الأعمال التي كانت توفر دخلا شحيحا.

(*) يستخدم المندائيون لباسا قطنيا أبيض خاصا في طقوسهم الدينية يلبسه الرجال والنساء على حد سواء يتوسطه حزام يشد أقسامه يسمى بالهميانة وهي من الصوف الأبيض وتكون مجوفة ولها مواصفات خاصة من حيث الطول وعدد العقد. وكانت حيهن تتقن حياكتها ولها سوق رائجة بين المندائيين.

رغم ذلك الفقر المدقع كانت الحياة تجري، بمساعدة البستان والبقرة الدبسة والتي كانت قد ساهمت بشكل جدي في توفر الحد الأدنى من العيش لهذه العائلة.

أنهى (قاسم) المرحلة المتوسطة بتفوق في مدينة العمارة وعاد بعدها إلى اللطلاطة،

أصرت حيهن على إرساله بعد انقضاء العطلة الصيفية إلى بغداد ليحقق طموحه وطموح الأسرة، وليعيد اسم سلمان إلى الواجهة بكل فخر.

زارت مندي اللطلاطة بعد أن ذاع صيته في تلك الأيام، مستشرقة وباحثة في الأديان القديمة انكليزية الجنسية وظلت تزوره من حين لآخر،

كانت تقضي تلك الباحثة الساعات الطوال في متابعة طقوس المندائيين في مندي اللطلاطة وكانت تمارسها أحيانا فتلبس الرسته وتصطبغ بالنهر وكأنها واحدة من المندائيين.

تعلمت لغتهم وعاداتهم، فأحبتهم كونهم يقدسون الحياة والطبيعة، وأحبوها بدورهم لكرمها ولتبجيلها لدينهم وطقوسهم.

سكنت خلال زياراتها المتكررة في موقع الحامية العسكرية البريطانية المبنية في الجهة الأخرى من النهر.

كانت الليدي دراوور (وهذا اسمها) تطلب من قاسم أن يجلب لها

قنينة حليب من الدبسة كل صباح إلى مقر الحامية كونها تطمأن من نظافة الحليب، وتجد في ذلك وسيلة لمساعدة هؤلاء الناس، فكانت تغدق عليه العطايا. وتستعين بإنكليزيته البسيطة في التفاهم مع الآخرين في اللطلاطة وفي شرح بعض الطقوس ومعاني بعض الكلمات، قبل أن تتعلم هي العربية والمندائية.

كتبت هذه الباحثة أهم الكتب عن الدين المندائي وعن هذا الشعب المنسي.

لم يكن العيش سهلا على الرجال في اللطلاطة، فلم تتوفر لهم فرص العمل في تلك المدينة، عدى بعض الحرف الصعبة كالحدادة ونجارة الزوارق، والقلة منهم وجدت فرصة العمل في مجال التعليم. وهكذا تغرب الغالبية منهم إلى البصرة، أو إلا دول الخليج بحثا عن الرزق.

حاول عبد الرزاق وهو الأخ الأصغر لقاسم، أن يجرب حظه في السفر أيضا فترك اللطلاطة، قاصدا مدينة البصرة، وهو لا يزال غلاما يافعا، ليعمل هناك من أجل أن يشبع بطنه أولا ويتعلم الصنعة، بعد أن عجزت الأم الأرملة والبقرة الدبسة في إطعام كل الأفواه التي راحت تكبر ولم تعد تعرف الشبع يوما في ذلك الزمان.

كان من طبع عبد الرزاق الضحك دائما وفي كل الظروف فلم

يعرف أحد قدر ألمه عندما كان يتألم.

روى لأمه ذات مرة، كيف أن الذين عمل صانع عندهم في دكان لصياغة الفضة في البصرة لتعلم المهنة:

كان هؤلاء يضعون مائدة الغداء ظهرا بعد ساعات من العمل الشاق، فتمتد العديد من الأيدي القوية إليها مسرعة. أما هو فكان يجد صعوبة في الوصول إلى قلب المائدة التي توسطتها سمكة مشوية «تناهشتها» أيدي الكبار. فيلملم ما كان على الأطراف منها في لقمته.

وقبل أن يشبع بطنه يأمره (الأسطى) بجلب كوب من الماء ليدفع به الغصة! فيعود هو بالماء، وعندها تكون المائدة أخليت تماما، فيأمرونه برفعها ليتكرر ذلك في اليوم التالي والذي بعده ولم يشبع بطنه أبدا طيلة المدة التي قضاها في تعلم الصنعة، إلى أن هرب من عقاب(تعلم الصنعة) هذا.

كان الكبار يعودون إلى عائلاتهم في اللطلاطة بالمناسبات ليخلفوا من جديد ويعودوا محملين بالهدايا، والتي كان أغلبها يدخل القرية لأول مرة.

راحت تتشكل ثقافة جديدة لهؤلاء الناس.

لم تعرف اللطلاطة من قبل السجاير مثلا، ولم يكن في القرية من يدخنها أصلا، فكانت علب سجاير (بلايرس) المعدنية، والتي

يصرّ غالبيتهم على جلبها معهم ربما إعجابا بصورة البحار الملونة التي طبعت على العلبة بإتقان، أو لأنهم يحصلون عليها كهدايا من البحارة الإنكليز.

كانت تلك العلب تفرغ هناك في اللطلاطة من السجاير لتتحول إلى صناديق لبعض الخرز، ولوازم الخياطة من أبر وخيوط وأزرار.

أما السجاير فيفرغها الأطفال من التبغ لتتحول إلى فرارات.

الكثير من الهدايا وخاصة المرسلة للعائلات «كصوغة» مع أحد المسافرين، لا يعرف أحد طريقة لاستعمالها، فراحت النساء يلبسن القمصان الداخلية الحريرية فوق ملابسهن العادية، ليتفاخرن بشرائط الدانتيلا التي تزين حواشي تلك القمصان الداخلية بالعادة، أما حمالات الصدر فكانت تستعمل في اللطلاطة، كواقيات لرفع القدور الساخنة، وكانت أصباغ الأظافر يستعمل في الشعر أو يستعمل كعطر، وعندما ما وصلت حبوب الفاصوليا أول مرة إلى القرية، قامت النساء بطحنها وإطعامها للأبقار.

كان أحدهم قد جلب لأولاده (جراموفون) مع اسطوانات غربية مختلفة، فأصبح مفخرة اللطلاطة الأهم.

أخذت الموسيقى تسمع في القرية لأول مرة، ولكن أولاد ذلك الرجل كانوا يمنعون بقية الصبية من الاقتراب من الدار، كي لا

يستمعوا إلى الموسيقى التي تنطلق من(جراموفونهم فهي لهم وحدهم).

و هكذا أخذت الحضارة تقتحم تلك القرية بإصرار مع الأيام وراح أبناء وبنات تلك اللطلاطة يشقون درب الحياة بقوة فأصبح بعضهم علماء ومهندسين وشعراء وفنانين وأطباء مرموقين يشار إليهم بفخر في المجتمع العراقي.

لم يعد يشغل حيهن وسكان اللطلاطة إلا مسألة الحصول على سندات ملكية الدور(الطابو) بعد أن ازدهرت القرية وأصبحت محط أنظار الجميع.

كانت رسوم التسجيل العقاري (الطابو)، تلك الورقة السوداء السحرية باهظة الكلفة في ذلك الوقت، والتي تتطلب معاملة خاصة في دوائر التسجيل العقاري في مدينة العمارة مركز اللواء.

قام سكان اللطلاطة بحملة تقشف مكثفة لتوفير رسوم الطابو لكل الدور، والتي بلغت ثلاثة دنانير وسبعمائة فلسا.

و بعد أن جمع المبلغ، كلفت القرية قاسم بإيصال هذا المبلغ إلى أحد المعلمين من معارفهم، والذي يسكن مدينة العمارة كون قاسم يعرف المدينة وإنه سوف يسافر قريبا إلى بغداد ويمكنه أن يمر على مدينة العمارة ويبقى فيها ليلة او ليلتين ثم يكمل طريقه إلى بغداد فليس هناك مؤتمن أكثر من قاسم في أن يوصل المبلغ المالي (الضخم)

والذي وضع في كيس من القماش خيط بإتقان وعلق في رقبته.

أرسلوا كذلك رسالة فيها كل المعلومات المطلوبة والوثائق، وحلانة(*) من التمر النادر، وكيس من (الكليجة) إلى قريبهم أبي علوان في مدينة العمارة والذي وعدهم بالمساعدة.

وصل قاسم بمشقة إلى سوق العمارة، في بحثه عن الدار التي انتقل إليها أبو علوان، وحلانة التمر قد هدت كتفه وهو يجرجر حقيبة سفره.

وعند مروره في السوق، وبعد أن أجهدت الحلانة كتفه، وزاد به العطش، استجاب لنداء بائع اللبن الذي افترش الدرب وسط السوق، فوقف بجانبه، كف هذا عن صراخه المنغم في مناداته الغريبة على بضاعته:

(ماي دجلة، ولبن عجله، واليشربه يشيل رجله)، شرب قاسم طاسة من لبن العجلة، وكان نصفها من ماء دجلة، ودفع ثمنها ثم شال حلانة التمر، وواصل البحث عن بيت أبي علوان.

دله الصبية على البيت فإن أبي علوان من المعلمين المشهورين

(*) كان التمر يكبس بسلال مغلقة تحاك من خوص النخل وهي ثقيلة يصل وزنها إلى ما يقارب العشرين كغ. والكليجة نوع من الكعك يصنع من الطحين ويحشى بالتمر ويخبز في التنور، وفي المدن تحشى الكليجة بالجوز أيضا وتخبز في الأفران.

في المدينة ولابد أن هؤلاء الصبية طلبته أو بعضهم.

طرق قاسم الباب فاستقبلت الحلانة بترحاب كبير، وحل قاسم عندها ضيفا عزيزا في بيت أبي علوان.

تسامر الرجل مع قاسم مرحبا به، وأخذ منه الدنانير وكيس الكليجة وكافة الأوراق وتعهد له بأن ينجز المعاملة بسرعة، ويوصل السندات لأهلها قريبا مباشرة بيده إن شاء الله.

نام قاسم ليلته تلك على السطح في بيت أبي علوان مطمئنا، فقد انزاحت الحلانة عن كتفه، وانزاح القلق على النقود فقد وصلت للشخص المطلوب، ولم يبق له إلا الحلم ببغداد ومباهجها وببنات بغداد.

من الصباح الباكر غادر قاسم العمارة في سفرة طويلة وشاقة على متن حافلة تجر نفسها بصعوبة إلى بغداد. كانت تلك سفرته الأولى إلى خارج حدود العمارة. حشر نفسه فيها بصعوبة في(خانة الشواذي)[1]، جنب رجل مسن، اصفرت أسنانه وأصابع يده من سجاير اللف. في باص صنع هيكله الخشبي محليا، يسع ثمانية عشر راكبا، يحشر عادة فيه خمسة وعشرين راكبا، صفت حقائبهم، فوق

---

[1] كانت المقاعد التي في الصف الأخير في سيارات الخشب، يطلق عليها خانة الشواذي، كون الجالسين فيها لا يستطيعون الجلوس فيها براحة لكثرة المطبات في الطريق.

سطح السيارة، ورصت جنبها مجموعة من الخراف والنعاج بعد أن ربطت جيدا، فكان رذاذ بولها يتساقط على وجوه الركاب ممن لم يحتمل الحر وتورط بفتح النافذة. إلى أن وصلوا مدينة الكوت، فارتاح الركاب هناك وتناولوا وجبة الغداء وشربوا الشاي وقضوا حاجاتهم وتوكلوا من جديد إلى بغداد.

أذهلت بغداد قاسما، وأكثر ما أثار إعجابه فيها هو بناية الكلية والجو الطلابي الحميم.

كانت كلية دار المعلمين العالية والتي التحق قاسم للدراسة فيها تقع في الباب المعظم، وهي منطقة تعد من المناطق الراقية ارتفعت أشجار اليوكالبتس في شوارعها العريضة فكانت ظلالها رحمة للسائرين في صيف بغداد الحارق.

كل شيء كان جديداً على قاسم في تلك الكلية وفي القسم الداخلي المعد لسكن الطلاب الوافدين إلى الكلية من المحافظات الأخرى، فلم «يتأقلم» مع وضعه الجديد إلا بصعوبة فكان المثل (هندي ونازل من المركب) ينطبق عليه حيث كان البحارة الهنود عندما يزورون البصرة وقت ازدهار أسواقها غالبا ما يتوهون في أزقتها.

أنهى قاسم الفصل الدراسي الأول بتفوق وكان مرهقا بكل المواصفات ثم حلت العطلة الربيعية فقرر قاسم أن يقضي عطلته

الأولى في اللطلاطة.

عاد قاسم إلى قلعة صالح وقطع الدرب من قلعة صالح إلى اللطلاطة مشيا وحقيبة سفره كانت خفيفة هذه المرة فلم يحملها على كتفه.

سار بين البساتين وهو شارد الذهن يستعيد ذكرى أيام الطفولة، مستذكرا الناعور والطنطل، محاذرا من الكلاب، وعندما وصل اللطلاطة تجمع حوله جميع من كان فيها يومئذ، وكأنهم على موعد معه، وقبل أن يصل الدار ويرتاح من عناء السفر، انبرى جميع المستقبلين لقاسم سائلين قبل كل شيء عن أوراق الطابو، وعن مصير النقود والأوراق التي أرسلت معه منذ عدة أشهر.

وضحت الصورة لقاسم، ووضح سبب هذا الاستقبال الغاضب من قبل سكان القرية له، بعد أن علم من حيهن، أن نقودهم قد تحولت إلى طابوق في واجهة بيت أبي علوان الجديد، في وسط العمارة، ولم يعرف مصير الأوراق بعدها.

سببت تلك الحادثة ألما موجعا لقاسم، وإحراجا كبيرا لحيهن، وظلت اللطلاطة مسجلة في دوائر الطابو باسم أصحابها، ولا يملك أصحابها سندات التمليك إلى اليوم.

لم يستطع قاسم الصمود في بغداد لأكثر من سنة بسبب فقره

المدقع، فعاد إلى قلعة صالح ليعمل معلما في مدرستها الوحيدة.

عندها تبدلت حال الأسرة وتركت حيهن العمل الشاق واكتفت بحياكة (الهمايين) ولغرض المتعة وتمضية الوقت كما كانت تقول، وأخذت الأسرة تعتمد على الراتب الشهري الذي يتقاضاه قاسم من مديرية المعارف.

عاد قاسم إلى قلعة صالح وقد غيرته بغداد. فعاد منها محملا بأفكار جديدة كانت هي السبب في هجرهم اللطلاطة والتشرد في القرى النائية، وفي معاناتهم القادمة.

ظلت حيهن تنتقل مع قاسم من قرية إلى أخرى حتى سكنت بغداد، بعد أن تزوجت ابنتها الوحيدة هناك، وبعد أن انتقل قاسم إلى بغداد ليدّرس في مدارسها.

وهكذا حرمت حيهن من النعيم والأمن الذي كانت توفره لها اللطلاطة، فكانت تشتاق «لأدوية أمها» ولتمر البستان وماء النهر وحليب الدبسة.

لم تستمر أيام السعادة في بغداد طويلا، فقد أعلنت الأحكام العسكرية فيها، بعد مظاهرات صاخبة تحولت إلى وثبة عارمة أطاحت بالحكومة وتشكلت حكومة عسكرية بدلا عنها، وأعتقل قاسم بسبب دوره في تلك المظاهرات، وبسبب أفكاره التي ظل يبشر بها

أينما حل.

لقد كان قاسم أحد الدعاة المزمنين لـ(جمهورية أفلاطون).

ثم جرت محاكمة لقاسم ورفاقه في محكمة سميت بـ(محكمة النعساني)، والتي كانت مهزلة مضحكة.

فبعد أن اصطفت مجموعة من المعتقلين أمام الحاكم (النعساني) وقاسم بينهم راح الحاكم ينطق بالأحكام على صف الشباب الواقفين أمامه، وكان فيهم شابا طويل القامة وقف في الوسط، فتليت الأحكام حتى دون ذكر أسماء المعتقلين، وكانت:

من الطويل وإلى اليمين سبعة أعوام سجن مع الأشغال الشاقة، ومن الطويل وإلى اليسار، عشر سنين سجن مع الأشغال الشاقة، فحار الطويل في أمره، فسأل الحاكم مع من هو؟ فأعطاه القاضي خمسة عشر سنة سجنا مع الأشغال، وكان قاسم يقف على يسار الطويل، فكان نصيبه عشرة سنين، قضاها في سجن نقرة السلمان وسط الصحراء.

وهكذا عادت حيهن إلى الفقر من جديد، وعادت تصارع جوعها، ولكنها كانت هي الخاسرة الأكيدة في صراعها الجديد، بعد أن تبدل سلاح المعركة ومكانها، فلا حصران ولا همايين في بغداد، ولم تعد هناك بقرة تعينها في صراع الحياة الجديدة.

دفعت حيهن الثمن غاليا من عوز وجوع، فحرمت صغارها من التعليم، بعد أن دفعت بهم مجبرة للعمل قبل أن يشتد عودهم، وراح هؤلاء يذرعون الشوارع بحثا عن لقمة العيش، والتي تطالعهم على خجل.

انتقلت عدوى الأفكار (الهدامة) إلى أولاد سلمان الواحد بعد الآخر، وظلت حيهن تحمل همومهم إلى أن توفاها الله ولم تر من نعمه إلا القليل فرقدت في مقبرة شمال بغداد قريبة من سجن أبي غريب.

الجزء الثالث
أم عين

مـن مفارقـات الـزمن، أن عراقيـي القـرن الماضـي، وبعـد أن خاضوا قتالا عنيفا ضد المستعمرين الانكليز في ثورة العشرين. بدأت خطاهم الأولى من جديد في درب الحضـارة ومن البداية هذه المرة، بينما كان أجدادهم الأوائل، وقبل سبعة آلاف سنة، هم اللذين رسموا للجنس البشري حضارته الأولى!

في عشرينيات القرن الماضـي، بدأت تظهر المشـاريع الزراعيـة من جديد وتنشأ المعامل وتفتتح المدارس. فأول مصفاة للنفط في مدينة (بلد)، بنيت في عام 1927 وبنيت معامل للنسيج والسجائر وغيرها.

انتعشـت الزراعـة فـي تلـك الفتـرة، بعـد أن تحـررت مـن كـابوس الضرائب التركية، وأصبح العراق يصدر الحبوب، وخاصـة الشعير إلـى دول العـالم، منهـا الهنـد وهولنـدا والـدانمرك، وكانـت صـادرات الشعير ضعف صادرات التمر في تلك الأيام، علـى الـرغم من غابـات النخيل التي كانت هي الأكبر في العالم في ذلك الوقت.

لا تأخذكم النشوة ويسحركم الأمل، فالعراقي لم يجن شيئا من تلك الخيرات، فقد تربعت مئة عائلة إقطاعية متعاونة مع المستعمر الجديد في تقاسم تلك الخيرات، وظل الشعب يعاني من الفقر والجهل والمرض والكوارث وكأنه لا يزل تحت نير الحكم العثماني[1].

إن تراكم تلك المظالم على مدى السنين، أوجد تربة خصبة لنمو الأفكار التقدمية الجديدة، والتي كانت تدعو الشعب للتمرد على واقعه المأساوي، وكذلك ساهمت روح العصر التي راحت تنادي بالاشتراكية والمساواة في نشر الأفكار الجديدة، بعد أن تغير العالم بسبب الثورة البلشفية في روسيا.

في عام 1924 ظهرت أول مجلة تروج للأفكار الاشتراكية والماركسية في العراق، أصدرها حسين الرحال. وراحت الشيوعية تنتشر بسرعة بعد أن قام يوسف سلمان بتشكيل خلاياها الأولى في جنوب العراق عام 1932، وهكذا أصبح (فهد) الاسم الحركي لذلك الرجل مثالا للشباب المتمرد على الظلم، وخاصة بعد أن أعدمته الحكومة العراقية العميلة للإنكليز في نهاية الأربعينيات. وأصبح الشعار الذي أطلقه فهد(وطن حر وشعب سعيد) يدغدغ مخيلة الفقراء

---

[1] إن السياسة الزراعية التي اتبعتها بريطانيا في العراق، كانت موجهة بالأساس للقضاء على الحيازة الصغيرة للأرض – جريدة التايمس في 1919/9/23.

المتعطشين للحرية.

شبّ قاسم وسط تلك الأجواء المشحونة وخاصة عندما كان يدرس في كلية دار المعلمين العالية.

كان حسه المرهف، وما ورثه عن أبيه من فكر متحرر، وولعه بالثقافة والفن قاده في النهاية إلى التمرد على حياته البائسة، والالتحاق بتلك الجموع الثائرة من الشباب.

لم يستطع قاسم مواصلة دراسته في بغداد بسبب الفقر المدقع الذي كان فيه. على الرغم من أن المغزل لم يتوقف عن الدوران بيد حيهن ليل نهار، لتوفر له بعض مصروفه، ولكن كلفة الحياة المرتفعة في بغداد كانت أكبر من أن ينهض بها مغزل واحد في قرية نائية.

في القسم الداخلي لطلبة الكلية التي التحق بها قاسم كانت توزع بعض الحصص العينية من المواد الأساسية التي يحتاجها الطلبة فكان الطالب يستلم مثلا قطعتين من الصابون في الشهر كان قاسم يوفر منها واحدة ليأخذها معه إلى عائلته في اللطلاطة.

كان قاسم ممشوق القوام جميل الطلعة مرهف الحس فنانا بالفطرة.

خاض الشاب مغامرته الأولى في بغداد المليئة بالحياة وهو

لايزال غرا لم يتعلم بعد ما تتطلبه حياة مدينة مثل بغداد، وكيف عليه التعامل مع الجنس الآخر، وهو الخجول القادم من الريف.

الجنس الآخر في بغداد وفي تلك الكلية بالذات كان متمرداً على عفوية المجتمع، ولطالبات كلية الملكة عالية صولات في هذا المضمار.

أعجبت بقاسم فتاة متحررة جميلة رشيقة القوام متكاملة الأنوثة. منحدرة من عائلة ارستقراطية بغدادية عريقة.

وجدت ميسون في قاسم الكثير من الصفات التي وضعتها مسبقا لشريك حياتها فأحبته بحذر، ولكن بإصرار وتحدي.

أحبها قاسم ولكن بخوف كونها كانت ثرية جدا بالنسبة له، وجميلة أكثر من طموحه، وكانت هي تجربته الأولى، فقلبه لم يكن قد خفق بهذه الحدة لغيرها من قبل. لقد عاش شبابه من قبل في اللطلاطة مع فتيات ظل يعتبرهن أخوات له رغم الجمال المميز للعديد منهن.

سارت الأمور في البداية بين ميسون وقاسم بكل يسر. فقد سحر الفتاة عشق ذلك الريفي الغر فكانت معطاء في مقياس ذلك الوقت مما دفع قاسم لحبها بكل جوارحه، وراح الحب يكبر في قلبيهما دون أن ينتبها لذلك.

تفوق قاسم في دراسته، فكان العديد من طلبة وطالبات صفه يقصدونه

ليساعدهم في شرح ما يشكل عليهم من الدروس، فشكل ذلك غطاء آمنا لعلاقته بميسون فلم ينتبه أحد لتلك العلاقة.

و هكذا توطدت العلاقة بينهما، وعاشوا أياما جميلة يملؤها الأمل والحب والمغامرات المسموح بها وربما تجاوزاها بحدود كذلك.

ذات يوم دار حديث بين قاسم وميسون أمام مجموعة من الطلاب عن الفرق والطوائف الدينية في الإسلام في العهد العباسي.

وأحتدم النقاش في أي الفرق كانت تمثل الإسلام التقدمي وما هي أهم الفروق والمميزات لتلك الفرق.

وهنا فاجأ قاسم الجميع كونه مندائي ولا يمت للإسلام بصلة، ولكنه أظهر معرفة واسعة جدا في هذا الموضوع.

صدمت ميسون عند سماعها ذلك وانسحبت من تلك الجلسة بهدوء ودون أن تلفت النظر. ثم قطعت علاقتها بقاسم دون مقدمات وكأنها لم تعرفه من قبل بعد أن اكتشفت أنه مندائي الديانة، ولم تلتق معه على انفراد بعدها إطلاقا.

كانت تلك صدمة عنيفة لقاسم فأغلق بابه أمام الجميع دون تبرير فكان ذلك مفاجئا لكل من حوله، وتقوقع على نفسه وتدهورت حالته النفسية مما أثر سلبا على دراسته.

وهكذا رغم اجتياز قاسم امتحان السنة الأولى بتفوق أيضا إلا أنه ترك الكلية وترك بغداد كلها، وعاد إلى قلعة صالح والحسرة تملأ قلبه

بعد تجربة الحب الأولى الفاشلة.

عاد إلى مسقط رأسه مبررا عودته بالفقر الذي لا تحتمله الحياة في بغداد. وهناك حصل على وظيفة معلم في مدرستها. فأخذ يدفن طموحاته في تلك المدرسة ليداوي جراحات قلبه التي أبت أن تندمل، وليدفن تلك الذكريات في أعماق الريف النائي.

كانت تلك الوظيفة فرصة في إعالة أسرته التي أنهكها الفقر وسلوى لقاسم.

كان قاسم يدرّس اللغة العربية ويدرسّ فن الرسم والأعمال اليدوية في مدرسة قلعة صالح الابتدائية للبنين.

ولكونه كان متحمسا جدا للأفكار الجديدة، وثائرا على المجتمع وعاداته، راح يدرس الصغار الكلمات الكبيرة التي تعلمها في بغداد، فكان يصر على دعوته لعراق جديد يسوده العدل والحرية والمساواة مهما اختلفت دياناته وعقائده، ويبشر بجمهورية أفلاطون.

ربما كان يحاول إظهار ما زخر به قاموسه الفكري الواسع الذي حمله معه من بغداد والمكتظ بالمفاهيم الجديدة فراح، متباهيا بها أمام زملائه المعلمين، والذين كان محور أحاديثهم (عرق مسيح ومرقه

المسموطة)[1]، أو ربما أراد أن يثأر لحبه الفاشل، ولا أعرف كيف صبرت عليه إدارة المدرسة عاما كاملا، وفي النهاية، أبعدوه إلى إحدى القرى في عمق الريف، وكان هذا هو ما أراده ربما.

كان اسم تلك القرية التي نقلت إليها خدماته (أم عين)، لا أظنها على خارطة العراق اليوم، ولا أنصحك في البحث عنها هناك ولا حتى في كتب التاريخ فلم تظهر فيها يوما.

كانت أم عين تقع على مشارف الهور. والطريق الموصلة اليها غير معبدة، فلم تطرقها وسائط النقل الحديثة، والتي كانت نادرة في ذلك الوقت، وظل الطريق النهري هو المنفذ الأفضل للوصول إلى أم عين حيث يتفرع من دجلة رافد كبير يسمى نهرا المجر الكبير والذي يصب في الهور، وهذا الرافد هو الوسيلة الأساسية الموصلة إلى تلك القرية ولغيرها من القرى المنسية هناك.

بعد أن اعتمدت العائلة على الراتب الذي كان يتقاضاه قاسم، والذي أخذ يشعره بأنه أصبح هو رب الأسرة، تخلت حيهن عن قيادة سفينة العائلة، فتركت لقاسم يبحر بها من قرية إلى أخرى دون

---

[1] المسموطة هي مرق يحضر من السمك المجفف والأجاص الحامض المجفف وغيرها. كانت هناك مواسم للسمك يصاد بكثرة فتشري العوائل هناك كميات منه وبعد أن تشق السمك وتذره بالملح، تقوم بتجفيفه فوق السطوح تحت أشعة شمس الصيف لتستعمله في مواسم الشحيحة الصيد.

اعتراض أو مقاومة.

لم يكن الانتقال إلى مكان جديد مجهول شيئا هينا على الجميع بعد أن اعتادوا على العيش في مجتمع تعاوني مثل اللطلاطة، وخاصة على حيهن التي اضطرت إلى التخلي عن(محمل) العرس الذي زينته «مونليزا العراق»، وعن (الرحى والجاون)[1]، وعن العديد من الأغراض التي تركتها مع أمها في اللطلاطة، والتي ظلت تعيش في اللطلاطة قرب أبنائها.

ظهرت هنا مشكلة حقيقية فإذا ضحت حيهن بفراق أمها وأحبابها في اللطلاطة كيف تتخلى عن الدبسة؟

لم يجدوا طريقة لنقلها إلى السكن الجديد، فالمشحوف[*] الذي استأجرته العائلة للسفر عليه إلى أم عين لم يسع العائلة وأغراضها إلا بصعوبة، فكيف ستنقل بقرة؟

كان قرار حيهن النهائي أن لا تسافر بدون (الدبسة).

لم تنجح كل محاولات قاسم بإقناع أمه بالسفر من دون تلك

---

[1] المحمل خزانة من الخشب تحمله أرجل أربعة وله أبواب تزينها لوحات من السيراميك الملون تحفظ في الملابس والأغراض المهمة أما الرحى فهي قرصان من الحجر يطحن فيها القمح والجاون لدق الرز وتقشيره، وهو من الخشب.

[*] المشحوف هو زورق كبير الحجم اصغر من السفينة وأكبر من الزورق العادي.

البقرة، حتى أنه وعدها بأنه سوف يشتري واحدة مثلها، ومن أول راتب يتقاضاه هناك. ولكن دون جدوى فقد كانت الدبسة جزءاً مهماً من حياة حيهن بعد أن عاشت معها كل تلك السنين.

لم تحل المسألة إلا بعد أن تدخل (مولى)، وهو أحد الحراس في البستان المجاور للطلاطة.

تعهد هذا الرجل بأنه سيأخذ البقرة لقاء مبلغ زهيد من المال مشيا على الأقدام إلى أم عين، وعلى مراحل فالمسافة لا تزيد على الأربعين كيلومترا، إذا قطعت بخط مستقيم، كان هذا الحل مرضيا للجميع، فمولى رجل معروف بأمانته وصدقه.

وهكذا سافرت العائلة بدون البقرة، كانت السفرة بالمشحوف خطرة ومخيفة فاللصوص يتربصون بالمسافرين في كل منعطف. ولم يستطع المشحوف الاستمرار في العوم في بعض مناطق النهر، وكاد يجنح عند بعض الجزر الرملية، مما اضطرهم إلى رمي الكثير من المتاع في وسط النهر، والذي كان أغلبه من أغصان التوت الجافة.

وصل المشحوف أخيرا ورسا في (ميناء) أم عين.

كان في استقبال المسافرين الجدد قاسم وإثنان من المنفيين مثله.

تساعد الجميع ممن حضر من سكان القرية، في نقل أغراض المعلم الجديد إلى الدار التي استأجرها.

انطلق مولى مع البقرة بعد أسبوع من سفر العائلة وسار معها عدة مراحل من الفجر إلى منتصف النهار متجنبا الطرق العامة والمطروقة من قبل الناس خوفا من قطاع الطرق، حتى تعب وهو لا يزل في أول الطريق، بعد أن أخذ مولى قيلولة قصيرة، وأخذت الدبسة ترعى في العشب الذي غطى المكان واصل مسيرته فداهمه الليل وحار بين إغراء النوم وبين حراسة البقرة واهتدى إلى ربط حبل قيادتها بمعصمه وناما معا حتى الصباح.

في الحقيقة لم يكن نوما بمعنى الكلمة، فقد قضى ليلته بين اليقظة والنوم خوفا على الأمانة التي في رقبته، وهكذا مرت تلك الليلة بسلام وواصل الطريق فجرا رغم تعبه. وفي الأيام التالية اقترب من أم عين، وهناك ربضت البقرة وحرنت ولم تتزحزح من مكانها.

تعب مولى في إقناع الدبسة بمواصلة الطريق، ولكن دون جدوى، فتارة يجرها من ذيلها، وتارة يرغبها بباقة من الحشيش، ومرة يتحدث إليها محاولا إقناعها، ولكن كل محاولاته ذهبت سدى، فالبقرة لم تتزحزح من مكانها قيد أنملة.

ظل مولى حائراً معها، لا يستطيع تركها في الطريق ولا يستطيع حملها، ولا التخلي عنها. ولم يهد الله البقرة لتكمل الدرب معه.

بعد أن عجز من إيجاد حل مناسب لتلك المصيبة، ترك البقرة

وذهب راكضا لأقرب سلف(*)، وهناك استجار بشيخ السلف بأن يساعده على حفظ الأمانة التي برقبته من اللصوص والوحوش لحين مراجعة أصحابها.

أجاره الشيخ وأرسل معه من يحرس البقرة مع بعض العلف والماء. أما مولى فقد ذهب إلى (أم عين) فوجد قاسم ليعلمه بخبر البقرة ومكانها.

اكترى قاسم مجموعة من الفلاحين فجاءوا بالبقرة ولم تهدأ حيهن إلا بعد أن رأت الدبسة وعانقتها واطمأنت عليها.

كانت الدار التي استأجرها قاسم عبارة عن كوخ كبير في أقصى قطعة من أرض ساحة رصاصية لم يفارقها الملح يوما في طرف القرية، بعد أن أحاط الكوخ والساحة بسور من القصب.

بذل قاسم وباقي أفراد الأسرة جهوداً متواصلة لإصلاح تلك الأرض بأمل زراعة خضار وأزهار فيها، ولكن لم ينبت فيها إلا بستان من الشوك وبعض شجيرات من الشفلح.

بعد أن استقر السكان الجدد في تلك «الدار» بنا قاسم بيتا للبقرة من القصب، ملاصقا للكوخ الوحيد الذي كانت تستخدمه الأسرة لكل الأغراض. فهو غرفة نومها، وهو مطبخ العائلة شتاء، وهو غرفة

(*) السلف وهو مجموعة من بيوت القصب أصغر من القرية.

استقبال الضيوف، ومكان الراحة والاستحمام، وكان قد بنا مرحاضا من القصب والحصران في ظهر ذلك الكوخ.

لم يمضي وقت طويل حتى تقاسمت الدبسة الكوخ مع الأسرة، بعد أن تكررت محاولات اللصوص في السطو على الدار ليلا وبإصرار في محاولة لسرقتها.

ظلت الأسرة تتذكر ولزمن طويل مطارداتها مع الصوص بالحجارة، والتي كان يشارك فيها كل أفراد الأسرة حتى الطفل نديم، وكيف كانوا يجمعون الحجارة في النهار ليرموا بها اللصوص في الليل من جديد.

مدرسة القرية الوحيدة كانت مبنية من الطين. وهي عبارة عن أربع غرف متفرقة، يحيط بها سياج من القصب.

كانت تلك مدرسة فريدة من نوعها وبامتياز، فملاكها التدريسي مكون من قاسم واثنان من زملائه المندائيين، هم من كان يديرها، وهم الذين يدرسون فيها وهم المسؤولون عن صيانتها وإكمال بناءها.

قام هؤلاء المعلمون المندائيون الثلاثة، وكلهم من (المغضوب عليهم)، المنفيين إلى أم عين، قاموا بحملة واسعة بين سكان القرية والأكواخ المجاورة من أجل إرسال أولادهم للدراسة فيها.

والمدرسة للذكور فقط طبعا، وكانت متكونة من ثلاثة صفوف

تـدرس فيهـا اللغـة العربيـة، والـدين الإسـلامي، والحسـاب والأشـياء والصحة، والفن والرياضة وغرفة الإدارة.

درس الـدين الإسـلامي كـان هـو الـدافع الأول للسـكان بإرسـال أبنائهم للمدرسة.لذا راح المعلمون يدرسون الأطفال القران فـي كتـاب جزء عم وجزء تبارك، ولكن درس الدين عند هؤلاء المدرسين، هو درس للغة العربية، والنصح والإرشاد أكثر مما هو دين، فهؤلاء لا يفقهون بالدين الإسلامي ولا يمارسون شيئا من طقوسه فهم باختصـار ليسوا مسلمين إنهم مندائيون جميعا!

نذر هؤلاء المندائيون الثلاثة أنفسهم في مكافحة الجهل والأميـة، ونشـر الـوعي الصـحي والفنـي بـين أبنـاء الفلاحـين فـي تلـك البقعـة المنسـية، ومـن خـلال الأطفـال الصـغار، حـاولوا رفـع الـوعي لـدى الفلاحين المعدمين،والذين لم يسكن تلك المناطق المهجورة غيرهم.

حـرص قاسـم علـى إظهـار مواهبـه الفنيـة فـي الرسـم والنحـت وغيرهـا، ولكنـه تفاجـأ بإبـداعات بعـض التلاميـذ الصـغار، فلـم يكـن يتصور وجودها في ذلك المحيط المعدم.

كـان الرسـم وأعمـال الطـين الأحمـر هـو المـادة الأساسـية لتنلـك الإبداعات.

راح الصغار وبتشجيع من قاسم المتحمس لفنـه، يصـنعون نمـاذج

من الأباريق والمشاحيف والأسماك وغيرها، وكان بعضها يرتقي إلى حد الإتقان، فكانت موضع زهو التلاميذ وأوليائهم.

هكذا نجح المعلمون الثلاثة في تثبيت أركان المدرسة، وأخذ التلاميذ يثابرون على الدوام فيها، وتوطدت العلاقة مع سكان القرية، وأصبح هؤلاء المعلمون الثلاثة موضع ثقة الناس وتقديرهم، ومرجع الاستشارة بأمور الحياة وخاصة الطبية منها وحتى الدينية في بعض الأحيان.

كبر طموح هؤلاء الشباب، فشكلوا فرقة تمثيل في المدرسة، وكانوا هم عناصرها الأساسية طبعا.

كتبوا لتلك التمثيليات نصوصا مقتبسة من التراث، مثل مجنون ليلى، وبعض الأعمال الثورية المستمدة من ثورة العشرين مع بعض التورية، ونصوص أخرى تعالج حرية الإنسان وكأنهم ينطلقون براية العراق الحر من تلك القرية المنسية أصلا.

راقت عروض بعض تلك المسرحيات لجمهور الفلاحين، فشجعت فلاحي القرى المجاورة في حضور عروضها المسلية.

كان أحد هؤلاء المعلمين الثلاثة، شاب وسيم، أبيض الوجه ذو عيون زرقاء ظلت سرا يستعصي على الفهم، كان يقوم بدور ليلى في مسرحية مجنون ليلى، وكان يشد الجمهور بحركاته الأنثوية وكأنه

ليلى حقيقة سال لها لعاب الكبار.

هكذا قضت أسرة قاسم السنة الدراسية الأولى بين سهر الليالي في مطاردة اللصوص، وواجبات قاسم التي لا تنتهي.

عادوا بعدها إلى اللطلاطة، بعد أن نقل قاسم مرة ثانية لمدرسة أخرى، وإلى قرية أخرى ثم كان زواج الأخت سببا أساسيا في عودتهم إلى اللطلاطة. فمهرها يجب أن يقام وفق طقوس ومراسيم خاصة ينفرد بها المندائيون[1].

---

[1] الأعراس المندائية وطقوسها شيء فريد في المجتمع العراقي، فهي جميلة ومعقدة، وتعقد في الصيف فقط كون طقوسها تتم في الماء الجاري أول الأمر.

تأتي الأم بابنتها العروس، بين مجموعة من النساء، وقد ارتدت العروس الملابس الدينية البيضاء، وفوقها عباءة بيضاء، وعلى وجهها برقع أخضر. =

= تسير أمام العروس فتاة تحمل بين يديها مرآة لترى فيها العروس هيأتها، وطفل يحمل إبريقاً من الماء، ومجموعة من الفتيات خلفها يحملن صواني الشموع الموقدة والمليئة بأغصان الآس، وأغصان الرمان التي ترمز إلى الحياة والخصب وغيرها من الورود والرياحين.

ثم يحضر العريس بملابسه الدينية البيضاء أيضا، يرافقه مجموعة من الشباب في زفة أيضا، ويجب أن يكون معه مرافق من اليمين ومرافق من اليسار.

يلبس رجال الدين الذين يعقدون المهر ملابس دينية بيضاء خاصة(الرستة).

بعد أن يقيم رجال الدين شعائر الطهارة في الماء يقومون بغمر العروسين كل على انفراد في ماء النهر ثلاث مرات مع تلاوة العديد من الأدعية والتسابيح،

تذهب العروس بعد أن تلف في عباءة إلى مخدعها حيث تحتفل بها النسوة وسط الزغاريد والأغاني، والتي لا تنتهي.

أما العريس فيجلسوه في بيت من القصب، مربع الشكل له 12 عمود كل عمود قصبتان

تربطان بخوص سعف النخيل، يوضع فوق البيت غطاء من القماش الأبيض. وتكون جدرانه مكشوفة تزينها الزهور والريحان، وأحيانا توضع عليها قطع ملونة من القماش لغرض الظل والزينة.

يظل رجال الدين مثابرين لساعات على تسبيحهم باسم الله وتلاوة الأدعية والتعليمات باللغة المندائية، والني لا يتقنها إلا القلة من المندائيين فلغة التخاطب بينهم أصبحت عربية منذ أمد طويل.

تحضر أسرة العروس لقمة المهر المكونة من الخبز الفطير (غير مختمر) على شكل أرغفة صغيرة يكون عددها 26 مع الفاكهة والتمر والمكسرات من جوز ولوز وزبيب وغيرها.

يحضر من يمثل العروس في عقد القران في بيت القصب هذا، ويتم عقد القران بعد أن يتعهد الرجل بصون عروسه وإسعادها، ثم تقسم لقمة المهر إلى نصفين يأكل العريس نصها، ويأخذ ممثل العروس النصف الآخر إلى مخدع العروس، والتي تجلس خلف ستارة معطية ظهرها للجالسين على فرش وضعت فوق الأرض مباشرة، وبعد أن تأكل اللقمة يعود ليكمل طقوسه في بيت القصب، الذي يكون مفروشا بحصران من سعف= =النخيل، وضعت فوقها سلال لملابس العروس مختلطة بملابس العريس.

بعد أن تنتهي الدعوات والصلوات المخصصة بالزواج، يأخذ رجل الدين العريس إلى مخدع العروس، وبعد أن يتأكد شخصيا من رغبة الفتاة بالزواج من عريسها، يجلسه جنبها معطيا ظهره لها.

وبعد أن تتعهد العروس بالإخلاص وبالحفاظ على إسعاد زوجها وتقاسم الحياة معه حلوها ومرها، يضرب رجل الدين رؤوس العريسين بعضها ببعض بلطف ثلاث مرات إشارة إلى إتمام عقد القران. ثم يزف العروسين إلى البيت الزوجية.

تستمر هناك الأفراح لسبعة أيام، ويجب أن يكون مع العريس حرز خاص من الحديد يسمى(السكين دوله) خلال تلك الأيام السبعة.

وبعد أن تنقضي الأيام السبعة، يذهب العروسان للتعميد في النهر ثانية مع كل الأدوات التي استخدموها، فلا يجوز للآخرين لمس العروسين أو ما استعملوا من أدوات قبل أن يتطهروا.

وهكذا أقيمت تلك المراسيم في اللطلاطة لأخت قاسم التي أخذها زوجها لتعيش معه في بغداد.

وقبل أن تنتهي الطريق إلى بغداد راح رفيق سفري سيف الدين يشخر بصوت مرتفع فتركته ينام بهدوء وعدت لداخل حسن وهو يشدو بأغنية ظلت كلماتها في الذاكرة إلى اليوم وهو يصف الفقر بطريق ما خطرت لأحد على بال يقول فيها عن لسان فتاة نضجت ولا تملك ثوبا مناسبا تخرج فيه:

(يا يوم قولي لأبوي آنا استحي منه

كبرت نهود الصدر والثوب شقنه)

وصلنا بغداد بعد سفرة طويلة قطعنا فيها مئات الكيلومترات وكل ذلك لأجل وداع نخلة كما علق سيف الدين.

ذهب كل منا إلى حال سبيله ولكن سيف الدين أصر على أن ينتزع مني عهدا بإكمال بقية القصة بعد أن أثار فضوله إصراري على توديع آثار درست!

ودعته بعد أن وعدته خيرا ولكن في الأيام القادمة، وقد تم ذلك له بعد أيام قليلة فلم يعد في الوقت متسع فموعد الرحيل قد أزف.

تحت شجرة يوكالبتس باسقة غطت ظلالها جزءاً كبيراً من

الحديقة الخلفية لبيت سيف الدين.

اختلطت رائحة السمك المشوي مع رائحة أغصان اليوكالبتس العطرة التي أخذت تشتعل في الموقد بعد أن خسرت المعركة مع جمر الموقد. فراحت تطلق سحابة من الدخان الأبيض.

لقد كانت الأغصان طرية والأوراق لا زالت تحتفظ بخضرتها المعتمة وتلك طريقة ابتكرها سيف الدين في شوي السمك، بعد أن سمع عن سمك السلمون المدخن فراح يقلدها بهذه الطريقة!

لا أكتمكم سرا بأنها كانت ابتكارا ناجحا أعطى للسمك المشوي نكهة خاصة، هل أكلتم يوما سمكا بنكهة اليوكالبتس؟

بعد أن تمتعنا بطعم السمك المشوي المدخن بورق اليوكالبتوس الأخضر راح إبريق الشاي الصيني يغلي على بقايا الجمر في الموقد وكنا في جو مرح من النكات والذكريات الحلوة وحينها أصر سيف الدين أن أكمل قصتي له وراح يلحّ في طلبه

«يالله نديم أكمل قصتك».

أهكذا ترجعنا إلى الهم من جديد يا سيف الدين! ألا تظن بأن الحديث عن نواعير مدينة عانة والفرات الصاخب و(طلايكم) ومقالبكم مع أهل راوه أصلح لمثل هذا اليوم الجميل؟

تشجع سيف الدين وراح يحدثني عن عانه بعد أن أنعش ذاكرته

قدح من الكونياك الفرنسي ليشجعني في سرد قصتي.

هل تعرف أخي الكريم أن عانه قد بنيت منذ عصر الآشوريين وبالضبط في أيام الملك الآشوري (توكلتي نينورتا) عام 884 قبل الميلاد!

في العصر العباسي بنيت فيها منارة مثمنة الجدران يعتز بها العراقيون كثيرا مما حدا بالأثريين العراقيين إلى نقلها إلى موقع مدينة عانة الجديدة بعد أن غمر سد حديثة المدينة القديمة بطريقة هندسية رائدة؟

أتعلم أن أحسن أنواع النبيذ على مر تاريخ العراق القديم كان يصنع في عانه؟

نحن أهل عانة ليس لنا مشاكل ولا (طلايب) مع المدينة المجاورة لنا (راوه) والتي يفصلها عنا نهر الفرات كما ذكرت. ثم ماذا تعرف أنت أيها الجنوبي(الشروقي) عن راوه وعانه وأهلها؟

أنت حتى اللطلاطة التي ولدت وترعرعت فيها لم تتعرف عليها.

أظن القضية أصبحت جدّ فسيف الدين (عصبّ) واحمرت عيونه ترى هل بفعل الكونياك أم بسبب النعرة العشائرية؟

عزيزي سيف الدين أنا أعرف أن الفرات في عانة واسع ومياهه تجري على عجل، مثلك تماما مستعجل في كل شيء. وعندما تنظر

إلى الفرات صباحا تراه كلوحة رسمها رسام مبتدئ، فالماء، الأزرق تنتشر فيه بقع بيضاء كثيرة بعد أن يتكسر موجه على الصخور فقعر النهر ليس عميقا، لذا كان أجدادكم يصنعون سدادا على النهر ليدفعوا الماء إلى النواعير الخشبية التي تظل تأن طول الوقت،

كنتم تخشون أن يجف النهر الأزلي والذي يفصلكم عن مدينة راوه وأعرف خصامكم معهم على تقاسم مياهه، وكيف حل نزاعكم بتدخل العقلاء من الطرفين بقسمة النهر مناصفة بينكم وبينهم بحبل يثبت وسط النهر، ولكنكم أيها الراويون، ولكونكم مشاغبون خرقتم المعاهدة بعد أيام من تطبيقها حيث ضبطوكم فجرا بالجرم المشهود. لقد وجدوكم تنقلون الماء من جهة راوه وتسكبوه خلف الحبل في جهة عانه بالجرادل!

- لا أنت غلطان الراويون هم من قام بذلك.

- هل تعلم أيضا أخي الكريم أنه بعد الاحتلال الأمريكي وأظن ذلك عام 2006 قد فجرت منارة عانه الأثرية عبوة ناسفة وسوي ذلك الأثر الرائع بالأرض ولم يعد منه أثر اليوم.

الأمريكان يتهمون الإرهابيين بهذا العمل الخسيس والإرهابيون يقولون أن الجنود الأمريكان هم من قام بذلك.

لا يهم من قام بذلك فالعراق وآثاره وتاريخه قد دمر من قبل

هؤلاء وأولئك.

هل ننوح اليوم على عانة وعلى تينها الأسود الذي لا أشهى منه وحباته التي تملئ الكف، أم على رطب (البربن والأشرسي) الذي لا يوجد شبيه له في كل تمور العراق.

أمرنا لله نرجع إلى اللطلاطة وأهلها والتي ودعناها وقوفا وكما قال الشاعر أبو نواس:

قل لمن يبكي على رسم درس واقفا ما ضر لو كان جلس!

قضى صاحبنا قاسم عدة أشهر في قلعة صالح ثم نقلوه إلى قرية العزير. وهكذا حزمت الأسرة أمتعتها من جديد.

تخلت حيهن هذه المرة عن البقرة الدبسة لأمها وبعد أن شاخت الأم وشاخت البقرة كذلك.

العزير ناحية صغيرة تقع بين البصرة والعمارة، وقبل أن تصل إليها وأنت قادم من العمارة تطالعك خمس نخلات باسقات كأنهن رأس الفالة[1] وقد أحاطت بشجرة كبيرة من السدر وشحت بعشرات الخيوط والشرائط الملونة قصت من ثياب مختلفة.

أشجار السدر في العراق تحظى بقدسية معينة لا أعرف مردها،

---

[1] الفالة أداة من الحديد لصيد السمك على شكل أصابع اليد الثلاثة مثبتة بذراع من الخشب. تستعمل بكثرة في الأهوار.

ربما تشبها (بسدرة المنتهى) ولكن تلك الأشجار كانت وكما يشاع تأوي الطناطل[1] ليلا.

كان سائق الشاحنة التي أقلت العائلة يؤكد أن تلك السدرة تقسم الطريق بين البصرة والعمارة بمسافة متساوية لحد المتر، فكان يثير إعجاب الركاب بتلك المعلومة الدقيقة.

ناحية العزير لا تختلف كثيرا عن غيرها من نواحي جنوب العراق. أكواخ من القصب والطين تحيط بقلعة من الطابوق يقف في بابها شرطي وبيده بندقية ذات حربة طويلة.

تضم تلك القلعة عادة مركزا للشرطة ودواوين الإدارة، وبجانبها مدرسة ابتدائية والمركز الصحي للمدينة.

ما يميز ناحية العزير عن غيرها من قرى العمارة، أن فيها قبة خضراء منتصبة على الجهة الأخرى من النهر. يقال أنها تظلل رفات النبي (العزيز)، نبي اليهود الشهير.

يزور ذلك المرقد الكثير من اليهود على مدار العام، فقد كان العبرانيون يعيشون في جنوب العراق بكثرة في تلك الأيام.

تستقبل ناحية العزير أعدادا من زوار ذلك الضريح من الرجال

---

[2] الطنطل مخلوق خرافي شاع وجوده في جنوب العراق يقال أنه يسكن فوق أشجار السدر.

والنساء بين مدة وأخرى، وكانت تلك الزيارات موسم فرح وسعادة لسكان القرية والشباب منهم خاصة. فاليهوديات الزائرات يأتين سافرات يكشفن عن قدر متواضع من الجمال كان يمثل القمة لهؤلاء الشباب.

كانت المدرسة تحتوي على ست صفوف مؤثثة بمناضد ومقاعد من الخشب يجلس عليها الطلبة تتوسطها سدرة كبيرة.

استأجر قاسم كوخا من الطين ضم عائلته، التي أخذت تصغر فالأخت انتقلت إلى بغداد، وأخوه عبد الرزاق ترك اللطلاطة، وذهب يبحث عن العمل في مدينه البصرة، وليتعلم الصنعة وليشبع بطنه كما يقول. و(الدكتورة) أم حيهن فضلت البقاء في اللطلاطة مع أبنائها فلم يهن عليها ترك (زبائنها).

لم يبق مع قاسم غير أمه وأخويه الصغيرين.

يقع الكوخ الذي استأجرته العائلة في آخر القرية يربطه بها طريق ترابي.

المدرسة التي توظف قاسم للعمل فيها والتي يدرس فيها أخواه الصغيران تقع في الجهة الثانية من سكنه، في آخر الطريق الترابي والذي يتحول عند المطر إلى برك من الطين.

عليهم اجتياز هذا الطريق مرتين في اليوم على الأقل هم حفاة

طبعا عدى قاسم.

كان عليهم اجتياز تلك البرك عند ذهابهم إلى المدرسة فيصلها الصغار وقد علق الطين على أقدامهم الحافية، فيتركون أقدامهم تجف ليتساقط الطين منها لوحده والذي يكون قد غطى أقدامهم بالكامل، ولكن عند العودة إلى البيت كانت تلك الأقدام التي تحمل الطين معها تسبب مشكلة لحيهن عانت الكثير منها.

شاعت لعبة مبتكرة بين تلاميذ الصف الثالث في مدرسة العزير.

وكان نديم في ذلك الصف فلم تصعب عليه وراح يمارسها مع رفاقه بإتقان.

كانت اللعبة التي مارسها مع طلاب صفه بسيطة، نبعت فكرتها من واقع الحياة في تلك الناحية ولم يك هو من أبتكرها طبع، فقد وجدها أمامه، ولا أعرف هل هناك مكان آخر في العراق أو في العالم تمارس فيها تلك اللعبة! أم إنها حكرا على أطفال العزير؟

اللعبة تبدأ قبل الفصول عادة، أو في أثناء الفرص التي بينها، يجتمع الصغار قرب إحدى المناضد ويفتح كل وأحد منهم دفتره ذا الورق الأسمر فتظهر صفحات لم يكتب فيها حرف بعد، ثم ينكث كل واحد منهم شعر رأسه فوق الدفتر، فتسقط قملة أو أكثر حتما على تلك الورقة، وكان القمل في تلك النواحي كبير الحجم ذو لون أبيض مع

نقطة سوداء في الوسط.

يترك الأطفال القمل يتساقط بحرية، لتسلك كل قملة دربا خاصا بها محاولة الهرب وكأنها تدرك ما ينتظرها، فيتبع الصغار طريق رحلتها على الصفحة السمراء بقلم من الرصاص، ومن كانت قملته ترسم طريقا أطولا ومتشابكا أكثر تنقذ حياتها وترمى من النافذة، وتقتل الباقيات بين أظافر الصغار بكثير من المرح والهرج !

لم تستمر إقامة قاسم أكثر من عام دراسي واحد في العزير، نقل بعدها إلى قرى مختلفة في ريف الجنوب. فضجرت حيهن من كثر الترحال معه وعادت لتشارك أمها العيش من جديد في اللطلاطة تاركة قاسم يدبر حياته لوحده في تلك القرى بعد أن أخذت الصغار معها إلى اللطلاطة من جديد.

عاش قاسم حياة صعبة وغريبة في تلك النواحي، فكان المعلمون المنتدبون للتدريس في تلك القرى يضطرون للعيش سوية في ظروف معاشية صعبة. ومما يرويه عن تلك التجربة:

أن زميلا له كان يدرس اللغة العربية لتلاميذ الصف الخامس في إحدى المدارس، وكان قد حل موسم جمع التمر وكبسه. وكان التمر ينقل في سلال من البساتين إلى المكبسة، وقد اختصت النساء والشابات منهن على الخصوص في نقل تلك السلال على رؤوسهن مخترقات درب القرية الوحيد.

كان زميل قاسم يقف عند النافذة يراقب الفتيات وهن يحملن سلال التمر، وقد تحزمن بعباءات من الصوف، فجسدت حركة أجسامهن، وكان أستاذنا الشاب مفتونا بذلك الإيقاع الذي ترسمه مؤخراً النساء عند سيرهّن المتكلف تحت أثقال السلال، فكان يملي على تلاميذه في درس (الإملاء) عبارات تعكس حسرته، ملأت دفاتر الصغار:

(فرقاعه، طرقاعة، طلايب، مصايب إلى آخره).

عادت حيهن إلى حياتها الرتيبة في اللطلاطة، بعد أن ضجرت من كثر الترحال وتركت قاسم يجوب الأهوار حاملا في يده مصباح سقراط لينشر ضوءه في ذلك العالم المظلم.

رغم كل الظروف الصعبة التي عاشها قاسم كان يعمل بجد لتطوير مواهبه الفنية، ويهيئ نفسه لتبوء مكانة لائقة في جمهوريته التي ظل يحلم بها، فأصبح رساما وخطاطا ممتازا ولم يترك تبشيره بالعدل والمساواة.

سئمت منه مديرية المعارف في لواء العمارة وأرادت الخلاص منه بأية طريقة، وأخيراً جاءها الفرج بعد أن قدم قاسم طلبا لتدريس الرسم والخط في مدرسة في بغداد

قبل طلبه ولكن بشرط أن (تتنازل) عنه الدائرة المرتبط بها في العمارة! وهكذا رحلت العائلة إلى بغداد مودعة اللطلاطة وداعا

نهائيا.

نسب قاسم كمعلم للرسم في إحدى المدارس الابتدائية في منطقة الكرادة الشرقية وكانت تعتبر من مناطق بغداد البعيدة في ذلك الزمان. حيث كانت تقع الكلية العسكرية ومعسكرات تدريبها. وكان منظر طلبة الكلية العسكرية بملابسهم البيضاء، وهم في مشيتهم الصباحية العسكرية مرددين نشيد الجيش (الجيش سور للوطن يحميه أيام المحن) مع إيقاع عسكري على الحان المارش، وبخطوات منتظمة تبهر الناظر.

كان هذا الاستعراض اليومي، متعة ما بعدها متعة لإبن التاسعة نديم، فكان ينهض مبكرا كل صباح، ويهرع إلى الشارع العام ليتابع ذلك المشهد، ثم ينظم إلى صلاح شقيقة ابن الأنثى عشر ربيعا ليذهبا سوية إلى أحد الأفران، كي يستلموا حصة العائلة من الخبز الأسود الذي كان يوزع بالبطاقات التموينية.

انتقلت العائلة إلى سكن جديد بسبب العراك اليومي بين صاحبة الدار وابنها الشاب الذي لا يذهب إلى العمل، والذي يظل جالساً لساعات طوال بجوار حائط الطين للبيت المجاور، بعد أن حفر ثقبا فيه ليتلصص منه على ابنة الجيران، فيصل إلى ذروة الإثارة عندما ترفع تلك البنت صوتها مترنمة ببعض الأغاني عندما كانت تستحم،

عندها يصبح عدوانيا خطرا جدا مستعدا لقتل كل من يعكر نشوته في تلك الساعة.

وكان نديم يقف أحياناً أمام ذلك المنتشي ببلاهة يتابع انفعالاته التي كان يغيب فيها عن هذا العالم.

تنبهت حيهن للموقف وأصرت على الانتقال من تلك الدار، فاستجاب قاسم لطلبها بتذمر.

في عام 1948 كانت بغداد على فوهة بركان عندما سعت الحكومة البريطانية في تجديد معاهدة 1930 بعد إعلان صالح جبر رئيس الوزراء العراقي في ذلك الوقت ومن مدينة (بورت سموث) البريطانية، حيث أعدت المعاهدة الجديدة، بأنه سوف يجبر العراقيين على قبولها.

انفجر ذلك البركان الذي كان خامداً لسنين، وراحت جموع العراقيين تجتاح الشوارع كالسيل الجارف في مظاهرات صاخبة، استمرت الوثبة عدة أيام وكانت الجموع في معارك يومية مع قوات الحكومة، سقط فيها العديد من الشهداء.

لم تصمد الحكومة فسقطت وسقطت معها معاهدة بورت سموث، وبدأت الحكومة العسكرية الجديدة حملة إرهاب على العراقيين، فأعلنت الأحكام العرفية. وزجت بالمئات من الشباب الذين ساهموا في

تلك الانتفاضة في المعتقلات والسجون.

صادف أن زارنا وحل ضيفا عندنا لثلاثة أيام في بيت الكرادة ذلك المعلم الذي كان يعلم التلاميذ (الطرقاعة والفركاعة).

كان صاحب (الطركاعة) هذا أحد السياسيين الذين انهاروا في أقبية التعذيب التي تديرها التحقيقات الجنائية فاعترف على رفاقه وكان اول من اعترف عليه هو قاسم!

وهكذا ألقي القبض على قاسم وزج به في السجن بعد محاكمات صورية كانت مثالا للسخرية، فكان نصيب قاسم منها عشر سنين قضى أغلبها في سجن نقرة السلمان وسط صحراء السماوه.

لم ينعم العراق بالحرية. فتارة يعيش تحت ظل الأحكام العرفية وأخرى تحت إرهاب قوى الأمن الذي لا ينتهي، فخلال (الحكم الوطني) أي الحكم الملكي والذي دام 38 عام تعاقبت على حكمه 59 وزارة. وأعلنت فيه الأحكام العرفية فيها 16 مرة إلى أن قامت ثورة 1958 فأطلق سراح قاسم.

التصقت هموم قاسم بهموم العراق المبتلى، فلم تعمر ثورة 58 طويلا، لم تصبر شركات النفط الأجنبية على قرارات الثورة الجديدة، فأطاحت بها بانقلاب دموي، استهدف كل منجزاتها، بما فيها الفسحة الضيقة من الديمقراطية،

سالت دماء العراقيين في الشوارع في ذلك الانقلاب الدموي، ولم تعد السجون التي بننها الحكومات المتعاقبة تكفي للمعتقلين، فوظفت النوادي والملاعب الرياضية وغيرها من المراكز العامة لتزج فيها الرافضين لحكومة الانقلاب.

لم يفوت حظ قاسم العاثر هذه الفرصة أيضا، فأخذ نصيبه منها خمس سنين سجن أخرى، وهكذا قضى زهرة شبابه بين سجون ملكية وأخرى ثورية، لكن قاسم ظل يبحث بإخلاص عن جمهوريته التي ابتلاه بها أفلاطون وإلى يومنا هذا.

أزف موعد الرحيل فتركت العراق وسافرت، وقصة اللطلاطة لم تنتهي فظل وعدي لسيف بتكملة الحديث عنها معلقا لحين اللقاء مرة أخرى أما متى سيكون هذا اللقاء فالله أعلم.

ترك سيف الدين العراق بعدي بأقل الخسائر فقد كان يضع كل يوم خطة للهرب ولكنه يجدها غير مأمونة الجانب، فيلغيها لخطورة المجازفة، وظل يجرجر والأيام تجري وهو يعاني في بغداد من سطوة النظام إلى أن تدخل القدر في إنهاء تلك المعاناة بعيدا عن خططه.

حصل على تأشيرة دخول لإيطاليا بحجة التجارة خلال معرض بغداد التجاري. وصادف أن أصدرت الحكومة عفوا عن الضباط

المفصولين الذين لم يشتبكوا من جديد بقواة (النخوة) فأصدرت قرارا برفع منع سفرهم فحصل على جواز سفر وسافر إلى إيطاليا بشكل عادي، ولم يعد بعدها إلى العراق. وعلى حد قوله (زوج اليرجع) وهي مقولة بغدادية دارجة تعني إنه ليس عبيط ليرجع!

كانت الحياة في إيطاليا تناسبه تماما لا بل وكأنها مفصلة على ذوقه فانسجم صاحبنا فيها، وراحت نظاراته (الريبان) تؤدي دورها مع الإيطاليات هناك في بداية الأمر، ولكن بعد أن بان الشيب في مفرقه انكشفت حقيقته فلم تنفع نظارات الريبان ولا الغليون (البايب) المطعم بالذهب وبحجر الماس، والذي لم يفارق فمه. ورغم ذلك ظل صاحبنا يكابر في إخفاء ذلك العدو الأبيض، وراح يقاتل من أجل شعرات سود حتى عجزت الوصفات الطبية وأصباغ الشعر، فتعب واستسلم للقدر على ما أظن.

لقد كانت معركة خاسرة مع الزمن منذ البداية، فحقد على الطبيعة التي لم تراع شعوره وأصابته في مقتل كما يقال.

فراح أخينا يستخدم أقلام (الماجك) السوداء لتلوين ذلك الداء الأبيض كلما خرج من شقته، عسى أن تنخدع إحداهن (بشبابه) وبعدها يحلها الحلال!

ظل سيف الدين يتنقل من مكان لآخر علّه يجد ما يلهيه عن

ذكريات بغداد ومغامرات بغداد وأيامه الحلوة فيها.

بعد أن أصبح يتمتع بحقوق المواطن الإيطالي أصبحت مسألة تنقله بين البلدان سهلة وخاصة الأوربية منها، فراح يجوب أوربا بحثا عن السلوى.

جاء لزيارتي ذات يوم في الدنمارك وقد شابت ملامحه ولكنه لم يتخلَّ بعد من الظهور بمظهر الشباب.

فكنا نستعيد أيام بغداد وأيام لهونا فيها واجترار الذكريات كما هو ديدن كل مهاجر.

ذات يوم أخذته معي إلى العاصمة كوبنهاجن لحضور حفل أقامه العراقيون هناك.

وراح القطار الحديث الذي يربط مدينتنا بالعاصمة يشق طريقه بين الغابات الخضراء الجميلة. لم تستغرق الرحلة إلى العاصمة وقتا طويلا فالدنمرك كلها من شمالها إلى جنوبها وكأنها بغداد بصرة.

مقاعد القطار الوثيرة تغري بالنوم ولا أعرف كيف استطاع سيف الدين أن يتذكر سفرتنا إلى اللطلاطة ونحن في أحضان طبيعة ساحرة، لابد أن خياله الخصب سرح به إلى هناك (ليناكدني) على عادته، وعندها ذكرني بوعدي له في سرد قصة اللطلاطة كاملة

وكما يقول المطرب الريفي (عبر على المجابل ونيني) فامتثلت

لطلبه وأمري لله!

الجزء الرابع
تفاح الدورة

باقة من الزهور الجميلة، لفت بعناية بورق فضي لامع، كانت السبب وراء كتابة هذه السطور.

في الرابع عشر من شباط عام 2004 وصلت مع سيف الدين إلى الحفل السنوي الذي أقامته منظمة الحزب الشيوعي العراقي في إحدى القاعات الواسعة في منطقة (آما) في العاصمة كوبنهاجن، إحياء للذكرى السنوية لرفاق دربهم الذين سقطوا في رحلة النضال من أجل العراق وشعبه.

لم يعرف منظموً الحفل تاريخ العديد من تلك الزهور التي اجتثها الطغاة قبل أوانها.

قدموا لي باقة من الزهور الحمراء وبطاقة تكريم كتب عليها «لذكرى الشهيد صلاح سلمان». ولكن لم تك صورة صلاح هي التي طبعت على تلك البطاقة وإنما صورة شاب آخر قتل غدرا (شهيدا) في مثل سنه.

أثارت تلك الزهور أحزانا موجعة في قلبي، عبثا حاولت دفنها عميقا في الوجدان والذاكرة.

ترك سيف الدين العديد من معارفه اللذين التقى بهم هناك وفضل أن يجلس إلى جانبي.

لم يكن سيف الدين يعرف عن قصة صلاح إلا النزر اليسير، وذلك من خلال الصور والأحاديث العابرة التي كنا نتبادلها عندما كنا نلتقي في بغداد.

أزاح هذا الصديق أنعم الله عليه بعضا من همومي في تلك الأمسية. خفف فيها بعض أحزاني حينما راح يواسيني قائلا:

«لا تحزن أخي نديم فإن أخاك قد تحول هنا إلى باقة من زهور كما ترى، بينما هناك الملايين من البشر تأتي وتذهب من هذه الدنيا دون أن تترك أثرا فيها».

سرحت بعيدا في ذاكرتي مع صلاح، وهذا هو اسم أخي الذي يكبرني بأربع سنين، والذي اغتاله طغاة الحكم عام 1963 على الرغم من أنه كان سجينا، قابعا في سجن الرمادي يقضي عقوبة التظاهر من أجل نصرة الجزائر «دفاعا عن القومية العربية»!

كان صلاح وسيم الوجه، جميل الصوت، فارع الطول لازمته ابتسامة رقيقة طيلة رحلته القصيرة التي قضاها على هذه الأرض والتي لم تدم إلا 30 عاما.

طفولـة صـلاح الأولـى قضـاها فـي اللطلاطـة، قبـل أن يرحـل مـع عائلته إلى بغداد في أواسط الأربعينات من القرن الماضي، تاركا تلك القريـة الصـغيرة الواقعـة فـي جنـوب العـراق، حتـى إنهـا ليسـت بقريـة بالمعنى المعروف. فلم تكن اللطلاطة إلا بضع بيوت بناها أبوه وأهلـه لذا سوف لن تذكرها كتب التاريخ أو كتب الجغرافيا.

فـي تلـك اللطلاطـة كمـا ذكـرت سـابقا شـارع رئيسـي واحـد يمتـد بمحـاذاة دجلـة، وعلـى هـذا الشـارع فـي الثلاثينيـات بنـا سـلمان داره المطلـة علـى النهـر، وكـان صـلاح يحـب ذلـك الشـارع وكـذلك بسـتان النخيـل الـذي زرعـه أبـوه فـي اللطلاطـة، فحـب العـراقيين للنخلـة وشموخها ترك أثرا واضحا في سلوك العراقيين, فكلهم عطـاء وجلهم عاش ومات واقفا بشموخ.

لم يذق الأب ثمار أشجاره، فقد رحل كمـا تعرف عن هذه الدنيا وعمر صلاح لم يتجاوز السادسة بعد.

لـم يتـرك الأب وراءه غيـر تلـك الـدار وتلـك الـنخلات، وبقـرة سوداء اسمها (الدبسة)، والتي كان لها الفضل الأكبر فـي بقـاء الأسـرة على قيد الحياة.

ترك بعده كذلك امرأة قوية عاركت الدنيا من أجل تربية أولادها وتعليمهم كما مر سابقا، ولم يترك لهم من إبداعـه الفنـي سـوى خزامـة

من اللؤلؤ احتفظت بها حيهن دهرا، ولكنها في النهاية باعتها لتحصل على أجور السفر لمواجهة ابنها البكر في سجن نقرة السلمان.

أما ديوان الشعر الذي تركه الوالد فقد ضاع أو أحرق مع كتب قاسم عندما قبضت عليه الشرطة في بغداد ولم يحفظ منه صلاح إلاّ بعض أبيات من الشعر الغنائي «أبو ذية» تقول:

يعبد العال لا تنتش بهاماك أصبع اليد الأبهام يعض عند الندم

تمكن وضربك دهرك بهاماك أي ضربك على هامة رأسك

تعد الناس كلها تهم بهاماك تعد الناس كلها تهتم بهمك؟

يا ريت البيه بك والبيك بيه يتمنى أن يبادله الهموم

كانت النسوة في اللطلاطة يرشرشن، ويكنسن شارع «الكورنيش» مساء كل يوم من أيام الصيف، ثم يفرشنه بالحصران التي يصنعنها بأيديهن من خوص النخيل.

وفي تلك الأمسيات وبعد وجبة العشاء المتكونة أبدا من الرز الأحمر المطبوخ، واللبن الرائب الذي تجود به أبقار الطلاطة، تجتمع العائلات لسماع قصص وحكايات لا يعرف لها مؤلف. كان الشيوخ يتناوبون على سردها،

فبعد إشعال فتايل فوانيس النفط، تنهمك مشاعلها في رقص لا ينتهي على أمواج دجلة، محتضنة أغصان الصفصاف السابحة في

النهر برقةّ.

فوانيس النفط تلك، اختراع خاص بريف الجنوب العراقي أملته الضرورة، وهو عبارة عن قنينة من الزجاج مليئة بالنفط الأبيض، تغمس بداخلها فتلية مقصوصة من أقمشة قطنية قديمة على شكل شرائط، يترك جزء صغير منها بارز فوق فتحة القنينة، ثم تثبت بالتمر المعجون جيدا، والذي يقوم على الإمساك بتلك الفتيلة ومنع تسرب النار أو الحرارة إلى داخل القنينة.

كانت حيهن تحتفظ بذلك الفانوس وكأنه كنز لا يعوض، ولم يستطع أحد معرفة مصدر تلك القناني الجميلة، ربما كانت قناني لمشروب مستورد أفرغت في عرس من الأعراس.

الفوانيس هي دائما سيدة الموقف في تلك الأمسيات، على الرغم من وجود بعض المصابيح الكهربائية التي تضئ الشوارع كل مساء، والتي لم تجرؤ على دخول المنازل لأسباب مجهولة اخترعها مسئول البلدية.

المصابيح صغيرة تلك علقت على ارتفاع كبير بالنسبة للأطفال فراحت تختلط بالنجوم التي تزين السماء بمصابيح أبهى في أمسيات الصيف الصافية.

وإذا كان القمر بدرا في تلك الأمسية فهو وحده الذي يستأثر بكل

القصص والأحاديث. التي ألهمت خيال الأطفال وخيال صلاح.

لقد كان شغوفا في حبه للقمر حتى أنه كانت يغتاظ من أمه إن لم تدع القمر ليأكل معه «طبيخ وروبه».

كان صلاح شديد الحياء، ذو طيبة لا حدود لها. وحاد الذكاء، متوقد الذهن منذ الصغر، تفوق في دراسته منذ سنين الدراسة الأولى فكان ينجز واجباته اليومية بسرعة حتى إنه كان يكتب واجبات بعض أقرانه، تفوق في دروس الرسم والفن فكان يصنع قطعا فنية رائعة من الطين الأحمر الذي تجود به شواطئ دجلة، والظاهر أن عدوى الفن قد انتقلت بالوراثة في تلك العائلة.

في أمسيات اللطلاطة كانت القصص تشد انتباه الأطفال وتنتقل بهم إلى عالم سحري، ولكن وللأسف وقبل أن تنتهي القصة يكون الصغار قد غفوا في أحضان أمهاتهم الدافئة، ثم ينقلون إلى أسرة مصنوعة من جريد النخل، ولم تترك تلك القصص في ذاكرة الأطفال إلا الانطباعات الرائعة عنها.

يخيم السكون في تلك الليالي، والكل ينام حالما بيوم جميل آخر، ويظل نقيق الضفادع وصوت إيقاع مضخة ماء في الجانب الثاني من النهر، وحده ساهراً مع أمواج دجلة. يبدد ذلك السكون أحيانا صوت باخرة صاعدة تشق طريقها في نهر دجلة عكس التيار في رحلة إلى

مدينـة العمـارة أو إلـى بغـداد، أو تكـون البـاخرة نازلـة مـع التيـار إلـى مدينة البصرة.

كم كانت فرحـة الأطفـال غـامرة بمشـاهدة تلـك البـواخر، وخاصـة أضـواءها الخضـر والحمـر، فكـانوا يحرصـون علـى رؤيـة المصـباح الأخضر أولا فهو لون الجنة.

عندما كانت تلك البواخر تمخر دجلـة فـي النهـار، يتبعهـا الأطفـال راكضين معها لمسافات طويلة طمعا بعلب البسكويت التي يرميها لهم طاقمها، وهم في الغالب من البحارة الهنود.

الكبار كانوا وحدهم يستأثرون دائمـا بتلـك العلـب، فلـم أذق يومـا طعـم ذلـك البسـكويت رغـم ركضـي المضـني وراء الآخـرين إلا مـرة واحدة بعد أن انتزع صـلاح قطعـة منـه مـن يـد أحـد الكبـار ليدسـها فـي فمي فيظل طعمها فيه وإلى يومنا هذا.

كانوا مجموعة كبيرة من الصـبيان والبنـات فـي اللطلاطـة وكلهـم أقارب، يذهبون كل يوم إلى المدرسة الابتدائية في مدينة قلعـة صـالح، والتي يفصلها عن اللطلاطة بستان بيت فرعون، وبستان بيت رسن بطريـق ترابيـة ضـيقة تنتهـي بـ(الكازخانـة) حيـث يبـاع الـنفط الأسـود والـذي كانـت العوائـل تحـذر أبنـاءهـا مـن الاقتـراب منـه خشـية تلـوثهم وتلوث ملابسهم فالصابون كان نادرا وغالي الثمن.

كانت تلك البساتين محروسة بكلاب شرسة، وغالبا ما تحرم الأطفال من المرور عبرها إلا برفقة الكبار.

كم كانوا يحبون السير عبر البساتين، حيث يتساقط الرطب الشهي بكثرة، ولكنهم كانوا مجبرين على سلوك طريق النهر الموازية لتلك البساتين.

كان صلاح يضطر لمرافقتي في سلوك تلك الطريق كل يوم جيئة وذهابا، فتعاليم ألأم كانت صارمة وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بسلامة آخر العنقود الذي هو أنا ولذلك سبب وجيه.

عندما كنت طفلا في الثالثة من العمر كنت أقصد النهر مع أطفال آخرين.

وذات يوم جلست قرب شاطئ النهر مع طفل يزيدني في العمر عاما أو أكثر بعيدا عن مراقبة حيهن ربما لأول مرة.

كنا في ذروة المتعة في مراقبة الزورق البخاري الذي شق النهر بسرعة كبيرة مخلفا أمواجا عالية كأنها السيف.

خفت أنا من تلك الأمواج فأسرعت راكضا بخطوات لم تزل صغيرة، بينما ظل رفيقي جالسا على الجرف مبهورا بالمنظر فابتلعته الموجة ولم يعثر عليه بعدها فكانت تلك كارثة اللطلاطة الأولى.

كان قاسم أخانا الأكبر قد غادر إلى بغداد لإكمال تعليمه العالي

هناك، والذي أضطر إلى تركه لاحقا والعودة إلى اللطلاطة ليقوم بدور رب الأسرة، بعد أن ترك الأب ذلك المنصب في رحلته لملاقاة ربه فظل شاغرا رغم محاولات حيهن ملأه.

لم يرجع قاسم بالشهادة الكبيرة، ولكنه عاد بمهمة لنشر الأفكار الجديدة، والتي تعد الناس بالعيش في سعادة على هذه الأرض! ولهذا الأخ قصص أخرى قد تجدون بعضها في مكان آخر.

بعد عدة تنقلات من مدرسة إلى أخرى في قرى العمارة استقر قاسم وعائلته ومنهم صلاح وأنا في بغداد، في منطقة الكرادة الشرقية في محلة السبع قصور. وهناك بدأت حياتنا الجديدة.

لقد نزلنا على كوكب آخر أسمه بغداد، فالناس في بغداد غير الناس اللذين في العمارة.

في بغداد الجميع لا ينطقون اللغة العربية كما ينطقها الناس في العمارة. فالبغداديون لا يلفظون كلمة (جا) في حديثهم أبدا ويتباهون على أهل العمارة بإبدالها بكلمة (لعد) وقد اختلط الأمر على الوافدين الجدد فراحوا يمزجون (الجا باللعد) وهكذا صار السؤال ينطق عندهم (جا لعد شلون؟).

بغداد كبيرة، ولم تستوعبها مخيلتنا الصغيرة بعد، رغم إننا لم نخرج أبعد من «حسين الحمد والبوليس خانه» وهي محطتان يقطعها باص المصلحة بدقائق معدودة.

لقد اكتشف أخوة قاسم أن في بغداد ملكا مفدى! ولم يستوعبوا وإلى اليوم ما هو دور الملوك، وما هي فائدة الملك أصلا، ولماذا يطلب من الجميع أن يفتدوه بالأرواح؟.

التحقت أنا بالمدرسة الابتدائية والتحق صلاح بالمدرسة المتوسطة. لقد كنا نسكن بالقرب من نهر دجلة، في غرفتين من الطابوق مع مرافقها، والتي كانت جزءاً من بيت بني داخل بستان كبير من النخل وغيرها من الأشجار، وكان محرم علينا تخطي عتبة الباب التي تفصل البستان عن البيت.

لم نكن مقتنعين في البداية، أن دجلة بغداد هي ذات الدجلة التي تركناها في اللطلاطة، كانت دجلتنا هناك وديعة وصغيرة. وكنا نشرب الماء منها مباشرة وكأنها ضرع البقرة الدبسة، كنا نسبح فيها ونصطاد فيها السمك، ونقضي أمسيات الصيف بجوارها، تسامرنا نسائمها الندية، وننام على هدهدة أمواجها. أما هذه التي في بغداد فهي هادرة الموج كبيرة لها رهبة في النفس «جالعد شلون؟».

كان قاسم أو قل الأب الجديد قد عين معلما في المدرسة الابتدائية التي التحق أنا فيها في الصف الرابع.

سارت الحياة أعواما قليلة بيسر وهدوء ولم يكن يعكر صفوها سوى عراك الأخوة الصغار المستمر كل صباح حيث كان على واحد

منا أن يصحو فجرا ليأخذ دوره في الزحام الشديد عند أفران الخبز في محلة (حسين الحمد)، ليجلب حصة العائلة من الخبز الأسود المدعوم من وزارة التموين.

كان اسم وزير التموين مهدي كبه على ما أظن فراح أحد الشعراء الشعبيين يتملقه ببعض أبيات من الشعر أذكر منها:

مبارك مهدي بن كبه

مبارك من صرت بالتموين

تنطينا شكر وطحين

أهلك أحنه مو غربه

مبارك مهدي بن كبه.

أخذتنا إدارة المدرسة ذات يوم بسيارات كبيرة، لم يبق في الذاكرة غير لونها الأصفر، أقلتنا إلى وسط بغداد، وهناك وجدنا جموعا حاشدة قد سبقتنا وفاض بها شارع الرشيد وهو أكبر شوارع بغداد في ذلك الوقت.

كانت الجموع كلها تهتف بشعارات غريبة، مثل «لا تنقهر فيصل فلسطين النا» ولم نفقه حينها لماذا ينقهر فيصل؟

ولماذا الكل يحرص على أن لا ينقهر فيصل؟ وكيف تكون

«فلسطين إلنا» ليش هيه مالت منو؟

كان هذا الحشد الأول في حياتنا التي كانت وادعة وسط بساتين النخيل وزقزقة العصافير، ونواح الفاخت وخاصة في موسم التمر وهكذا أجبرنا على الإشترك مع الجموع بالهتاف فلسطين إلنا، كانت تجربة فريدة في حياتنا، تبعتها تجارب من حشود ومظاهرات كانت تفرق بالرصاص والهراوات!

انتهت فترة النعيم التي عاشتها العائلة في سنين بغداد الأولى، ونحن لم نتجاوز بعد مراحلنا الدراسية، فكان صلاح في الصف الثالث المتوسط، وكنت أنا في الصف الخامس الابتدائي، عندما ألقت الشرطة القبض على الأخ الأكبر «قاسم».

وهكذا «تيتمت» العائلة من جديد. فهربنا من دارنا في السبع قصور، ومن المدارس التي كنا فيها خوفا من أن تقبض علينا الشرطة أيضا.

سجن قاسم عشرة سنين بعد محاكمة كان الأحكام فيها تصدر جزافا، وبالجملة، وهكذا كانت ديمقراطية المفدى.

بعد تنقلات في السكن من غرفة إلى غرفة بدور مختلفة ومناطق متفرقة، استقر بنا الأمر وإلى حين في جانب الكرخ في محلة اسمها الدوريين.

هكذا وفي سن مبكرة جدا أصبح صلاح رب العائلة، وبدأ يخطط لحياة الباقين وكأنه كان قد استعد لذلك.

لا أحد يعرف من أين حصل صلاح على عربة صغيرة صنعت من الخشب. وأظنها من تلك الصناديق الخشبية التي كان يباع فيها الشاي المستورد من بريطانيا. ثبت في أسفل الصندوق عجلات حديدية صغيرة الحجم، ولكن كان لإسمها وقع خاص على المخيلة «بول برنات صجم» وكم كانت تسحر الناظر تلك «البولبرنات» عندما كان يبرمها صلاح بخفة فتظل تدور حول محورها وكأنها عجلة أبدية وأنا أطالعها مندهشا فاغرا فمي الكبير.

كنت وصلاح نسابق الشمس كل يوم، وغالبا ما كان يدركنا فجرها قرب بساتين الدورة، والتي كانت تغطي مساحات واسعة من الأرض جنوب بغداد. كنا نسلك طريق سكة حديد بغداد بصرة مختصرين الطريق للوصول إلى تلك البساتين للتبضع منها.

ذات مرة كاد القطار الغاضب أن يقتلنا وذلك في طريق عودتنا والعربة محملة بتفاح بغداد الأبيض.

كنا ندفع عربة التفاح سوية بكل قوة وبكل طاقتنا لنصل قبل أن يبرد شاي الصباح وأرغفته الساخنة. ولولا ردة فعل صلاح السريعة لمتنا تحت عجلات القطار في تلك المرة.

رمانا صلاح أنا والعربة خارج السكة بخفة، فمّر القطار من جنبنا هادرا دون أن يعير لنا أي انتباه وكأننا لم نكن أصلا.

بعد أن التقطنا أنفاسنا رحنا نمسح بلساننا على الخدوش التي أصابتنا وأخذنا نلملم التفاح الذي افترش الأرض.

عدنا إلى العربة من جديد ندفعها بما جمعناه من تفاح بعد أن فقدنا الكثير منه والخوف لم يفارق قلبينا بعد،فكنا نلتفت خلفنا كلما خطونا بضع خطوات رغم معرفتنا أن هناك قطار واحد يمر على الخط الوحيد هذا وقد عنفنا بقوة قبل قليل كوننا تطفلنا على دربه الحديدي.

قد تعيش الآن في ذلك المكان شجرة من التفاح الأبيض الذي تنفرد به بساتين بغداد، فإذا مررتم بها يوما اذكرو أبناء سلمان بالخير يرحمكم الله.

حمدنا الله على السلامة أولا، ثم على العودة بالبضاعة شبه سالمة، فلو كانت بضاعتنا من التوت أو المشمش لضاع رأس المال حتما، والذي لا يعرف من أين دبره صلاح أصلا، فلم تكن لدينا محصلات نقود أو كان هناك من يقرضنا.

العشرة فلوس المقرفصة الجوانب، كانت تثير فضولنا في تلك الفترة، أما «القران» الصغير الأبيض «عشرون فلسا» فكان لمتعة

النظر فقط عندما يصادف أن نراه في يد أحدهم. ولولا عطف الله لعدنا فقراء من جديد (وهل هناك فقر أبشع من الفقر الذي عاشته هذه العائلة المؤمنة بالله؟) كنا نظن أننا قد أصبحا من تجار الفاكهة ! كان صلاح يذهب كل يوميا ويأخذني معه لنشتري الفاكهة من تلك البساتين، والتي كانت تحيط ببغداد كغطاء الرأس. فتبدأ من القصر الجمهوري اليوم، والذي كان بستان للنخيل فيما مضى، ولا يعرف أحد أين تنتهي تلك البساتين، ربما مقابل سلمان باك أو أبعد من ذلك؟

كان صلاح يشتري ما توفر من فاكهة الموسم على قدر العربة، تارة تفاحا، وأخرى مشمشا أو كمثرا وأحيانا تينا ونادرا ما نتاجر بالتوت.

نعود كل مرة بالفاكهة التي اشتريناها إلى البيت، فيصنفها صلاح حسب جودتها، ويحدد أسعارها وبطريقة عصية على الفهم. ثم يذهب صلاح بالأنواع الجيدة منها ليبعها هو، ولا أعرف أين وكيف.ويترك لي مهمة بيع الأنواع الرديئة من تلك الفاكهة.

كم كنت أكره تلك القسمة، فتلك الأصناف لا تباع بسهولة. إنها «قسمة ضيزى».

ولكنني في النهاية ارضخ لقسمتة وأروح أجوب شوارع الدوريين وعلاوي الحلة كل يوم وصولا إلى مستشفى العزل «مستشفى

الكرامــة» اليــوم، ثــم نعــود إلــى مرقــه معجــون الطمــاطم والبصــل (المحروق إصبعه) هكذا كان اسم وجبة غدائنا الدائمة، والتي لا تتغير إلا ما ندر وقد فارقنا «الزفر» منذ أمد بعيد. ثم نعيد الكرة بعد الظهر حتى تباع البضاعة لآخر تفاحة إن كانت تفاحا.

كانـت تجـارة بيـع الفاكهـة تسـعد العائلـة، علـى الـرغم مـن دخلهـا الواطئ جدا، فقد كانت العائلـة علـى الأقل تأكل فاكهـة كل يوم والتـي حرمت منها بعد ذلك.

هكذا أصبحنا (أنـا) وصـلاح نعيل الأسرة بعد أن انقطعنـا عن المدرسة تماما، فشبح التحقيقات الجنائية قد سكن مخيلتنا.

ربمـا بسـبب ذلـك الشـبح تجـدني وإلـى اليـوم معجـب بكتابـات «كافكا» وخاصة قصته المحكمة.

أخذ صلاح يكوّن عالمه الخاص، وراح يبتعد بفكره عن العائلـة، ولم يعد يشاركني اللعب، وكأنه قد أصبح رجلا ناضجاً دفعة واحدة، على الرغم من أنه لم يصل السن القانونية بعد.

أخـذت مطالعـة الكتـب جل وقتـه، وأغلبهـا كانـت مـن الكتـب ذات العناوين الصعبة، ولم يهتد أحد إلى مصدرها، ومن أين يـأتي بهـا فقد كان يدخل الكتـب إلـى البيت، وكأنهـا بضـاعة محرمـة، ويحـرص كل الحرص على أن لا يطلع عليها أحد. ثم أخذ بعد ذلك يتغيب عن البيت

كثيرا، وأحيانا يزورنا رجال ظلت صورهم محفورة في الذاكرة رغم نفورنا منهم، كونهم انتزعوا صلاح منا، وخاصة ذلك الرجل الأزرق العينين صاحب الخدود التي تكاد تنفجر من العافية، والذي كان يدخن السجائر بنهم، على الرغم من حرصه المتكلف بأن يكون خفيف الظل مع الجميع.

افترقنا في تجارتنا بعد أن باع صلاح العربة، وصنع لي بسطة من الخشب، أعلقها على رقبتي، بحيث ترتكز على البطن، كي يسهل حملها، لأعرض عليها ديكه، وحيوانات ملونة مصنوعة من السكر، مثبتة بعيدان من جريد النخل، تغري الأطفال بألوانها المتعددة.

أما صلاح فراح يشتغل كعامل بالأجرة، ولا تعرف العائلة أين يشتغل بالضبط وكم هي أجرته.

في صباح يوم مشرق، ابتعدت ببضاعتي عن الشوارع المعتادة، والتي كنت أذرعها كل يوم حتى ملّلت من برك مائها الآسن والتي تغطيها كل شتاء، وكرهت هي أيضا صوتي المتشنج، رغم نعومته عندما كنت أنادي على حيواناتي وطيوري السكرية الملونة.

سلكت هذه المرة دربا قادتني باتجاه حيّ الصالحية ودور السكك، والتي كانت تحجبها عن المستطرقين أشجار الدفله المغطاة بأزهارها الوردية والبيضاء وأوراقها المغبرة دائما.

وما أن عبرت شارع علاوي الحلة حيث المتحف الوطني الآن، حتى شاهدت منظرا أقشعر له بدني الصغير.

اقتربت أكثر بدافع الفضول من ذلك المكان، فتسمرت قدماي ولم تعد تطاوعني، ثم عصفت بي رعدة راحت تهز ركبي!

شاهدت العشرات من رجال الشرطة، استطالت سراويلهم القصيرة لتنزل بضعة أصابع إلى أسفل الركبة محاولة الالتحام بلفافات من القماش الأسمر السميك، لفت بقوة على سيقانهم فغدت وكأنها ملوية سامرا نازلة إلى أسفل القدم، لتلتصق بأحذية سوداء ضخمة لا أظنهم يستطيعون رفعها عن الأرض إلا بمشقة. اعتمرت رؤوسهم سدائر مصنوعة من الصوف بلون الخاكي، وانحرفت كلها بزاوية حادة فوق تلك الرؤوس السمر الحليقة ، وفي أيديهم بنادق طويلة.

شكّل هذا الجمع الغريب سياجا بشريا لا ثغرة فيه فكان يفصل بين الواحد وصاحبه بضع خطوات فقط.

كانت هناك أيضا، سيارات «جيب» عسكرية، من مخلفات الجيش البريطاني صغيرة الحجم خاكية اللون أيضا، تحمل كل واحدة منها بندقية رشاشة، جلس خلفها شرطي من العيّنة ذاتها وأصابعه مسمرة على الزناد، فشكلت تلك السيارات أبراجا لذلك السياج الرهيب.

كان كل هذا الحشد من الشرطة المسلحة يحرس رجلا واحدا، علق من رقبته بحبل سميك، وراح يتدلى من فوق عمود خشبي أقيم في وسط الساحة «تحت بوابة المتحف العراقي اليوم بين الثورين المجنحين» تماما.

كان الرجل المدلى يرتدي بدله بنية غامقة، وحذاء أسود لابد إنه اعتنى كثيرا بتلميعه، في ليلته الأخيرة تلك، وقد زادت الشمس في لمعانه. غطى الجلاد رأس الضحية بكيس من القماش ضاع لونه، ونزل إلى تحت الرقبة.

لم أدرك مغزى تلك الممارسة في حينه. ذكرّتني ربما (بالتشابيه) التي كانت تقام في ذكرى استشهاد الحسين، والذي أحبه دون أن أعرف سببا لذلك الحب.

هل يكون هذا الرجل المدلى بالحبل من معسكر الحسين؟ ولكن أين تلك العمائم الخضر؟ الشرطة تمثل معسكر الشمر حتما فكلاهما يمثلان العنف والكراهية، ولكن لماذا كل هذا الحشد من الشرطة والسيارات المسلحة. أتكون كل تلك القوى مخصصة فقط لحراسة رجل واحد معلق بحبل، لا يمكنه الفرار منه حتى وإن كان فيه نفس؟

رحت أبكي بمرارة من شدة الخوف، والذي زاده، منظر الشرطي المجدور الوجه الواقف بالقرب مني والذي نهرني طاردا

بعنف، فعدت أدراجي إلى الدوريين وأنا ألتفت خلفي كل عشرة أمتار خوفا من أن يتعقبني أحد من الشرطة.

كرهت تلك الساحة التي شهدت شنق ذلك الرجل[1].

ظل الخوف محفورا في قلبي منذ صبيحة ذلك اليوم، وعدت أتحاشى المرور قرب تلك الساحة وإلى يومنا هذا.

عندما عدت إلى البيت، كنت في حالة من الهلوسة والهذيان، ثم ازداد رعبي حين علمت أن الرجل المشنوق يمت بصلة ما بقاسم وبصلاح أيضا، ولم أفهم ما هي هذه الصلة ومدى خطورة تبعاتها على العائلة.

افترشت الأرض واستسلمت لرعشة الحمى، وكأن شبح الموت يطاردنا نحن بالذات دون خلق الله.

لم أقترب من ثريده (المحروق إصبعه) التي أحبها ذلك اليوم، واعتكفت في البيت ولم أخرج منه لعدة أيام، على الرغم من إلحاح أمي وإلحاح صلاح على ضرورة الخروج، حرصا منهم على مساعدتي في تجاوز تلك المحنة، أو ربما خوفا على بوار البضاعة التي وظفت فيها العائلة ما يقارب المائة فلسا.

---

[1] كان ذلك الرجل هو يوسف سلمان يوسف «فهد» والذي كان سكرتيرا للحزب الشيوعي العراقي في تلك الحقبة.

انتقلنا بعد تلك الحادثة إلى دار في حي الأكراد بجانب الرصافة، ومنها إلى دار ثانية في بني سعيد، وأخرى في حي سكنه فقراء اليهود في أبي سيفين قبل هجرتهم إلى اسرائيل.

كان هناك دائما من يشاركنا السكن في تلك الدور. مرة يسكن معنا رجل غارق بين أوراقه، لا يرى خارج غرفته إلا ما ندر، لم أفلح في رسم صورته في مخيلتي على الرغم من محاولتي الاختلاط به والتعرف على شكله، فضول الأطفال!

ثم جاء آخر غيره، وكان هذا الآخر شارد الذهن تبدو عليه أثار النعمة. ثم خلت الدار منهم فرحلوا ورحل صلاح معهم. وكان ذلك آخر عهد لصلاح بالسكن مع أمه وأخيه.

شوهد صلاح ذات مرة وهو يشتغل في مخزن لبيع المواد الغذائية في شارع الوصي (شارع النهضة)، وتبين بعد سنين أن هذا المخزن هو مقرا لسلام عادل، ذلك الرجل الذي حل محل فهد سكرتير الحزب الشيوعي، بعد أن تعاقب على ذلك المركز رجال عدة، كان من بينهم من شاطر العائلة فقرها في حي الأكراد، وحي بني سعيد وأبو سيفين.

بعد أن تركنا صلاح، رحت أعتمد على نفسي في إعالة حيهن، والتي تعبت هي من هموم الحياة لكنها لم تستسلم لها.

دخلت سوق العمل وأنا في الحادية عشر من العمر ورحت أتنقل من عمل لآخر إلى أن استقر بي الحال أن أعمل في إحدى المطابع بأجور يومية مغرية، تقارب المائة فلس يذهب ثلثها للنقل ولوجبة الغداء، التي لم تتغير طيلة عملي في تلك المطبعة. ولم تك تلك الوجبة سوى رغيفين من الخبز (صمونتان)، وطاسة من اللبن الرائب، مع قطعة من تمر الحلان.

رحت أتنقل بين مطابع بغداد غير البعيدة من سكني في أبو سيفين، والمنتشرة في شارع المتنبي، توفيرا لأجور النقل، وتوفيرا للوقت، بعد أن التحقت بإحدى المدارس المسائية، والتي كانت منتشرة في ذلك العهد.

راح أجري يرتفع شيئا فشيئا في تلك المطابع فتبدلت وجبة الغداء، حيث دخل في قائمتها الرز والمرق.

لم تعد العائلة ترى صلاح إلا ما ندر. في ذات يوم زارني صلاح في المطبعة التي كنت أعمل فيها كمساعد طبّاع وقبل أن ينتهي يوم العمل بدقائق. لم أعرف كيف علم صلاح بمكان عملي، ولكن كانت فرحتي كبيرة برؤية الأخ الغائب. سرّرت جدا بذلك اللقاء فرحت أحضنه وأقبله بلهفة. على الرغم من غرابة الموقف أمام العمال الآخرين.

هدأ صلاح من روعي وخرج معي إلى الطريق، بعد انتهاء العمل، ليريني البايسكل (الدراجة الهوائية) التي جاء عليها.

كانت الدراجة ذات ثلاث عجلات، يتصدرها صندوق خشبي ذكرني بعربة الفاكهة. أركبني صلاح فوق الدراجة وراح يدفعها، ماشيا بجانبي، سألني عن حياتنا وعن صحة أمه، وكان مشتاقا لمعرفة أبسط التفاصيل في حياتنا وما الذي استجد فيها يعد غيابه عن البيت.

توقف عن الحديث الخاص عن العائلة، وأخذ يشرح لي كيف أن الحزب بحاجة إلى حروف الطباعة «والتي كانت تصنع من الرصاص وتستورد من إنكلترا»، وطلب مني أن أخرج من العمل نهار الغد بإجازة لمدة ساعتين لأذهب معه إلى إحدى المطابع التي تبيع تلك الحروف، والتي تقع في شارع المستنصر قرب دائرة التحقيقات الجنائية السيئة الصيت كي أشتريها له.

كان صاحب تلك المطبعة من وكلاء التحقيقات الجنائية «الجهاز الأمني المرعب في تلك الحقبة من تاريخ العراق، والذي ازدهر في كل الحقب اللاحقة حتى أصبح المرفق الأساسي في أجهزة الدولة العراقية وإلى اليوم».

لم يكن كل شيء سيئا في اجهزة الأمن ولكن لها فوائد كما

تعرف، فلولاها لما رأيتك أيها العزيز سيف الدين!

علق سيف الدين:

- ألم يكن من الأفضل أن يلتقي الناس في ظروف أفضل؟ أستمر أخي العزيز فهذا اليوم يظهر كله هم ومنذ بدايته هم وقهر جئتك قاطعا المسافات الطويلة لأرفه قليلا عن نفسي وأزيح بعض كآبتي فأخذتني إلى الحفل! ومن يسمعك يقول حفلا حقا وإذا به خطابات وهتافات ومناحة، ولولا التقائي في ذلك الذي تسميه حفلا بناس أعزهم ومشتاق لهم منذ زمن لحقدت عليك حقدك على أجهزة الأمن، والآن تكمل السهرة بتلك الدراما الحزينة! أكمل وخلصنا.

- دعك من هذه التي تسميها دراما ولنذهب إلى الحانة وهي مكانك المفضل على كل حال سأعفيك من تلك القصص الحزينة حقا وإن كانت تمثل لي ذكريات لصقت في لبها وظلت تلح عليّ في صحوتي ومنامي. هيا لنخرج فلا ينفع معك غير قدح من الكونياك وترديد نكات بذيئة.

- عيوني نديم أمزح معك والله إنني بشوق حقا لسماع تلك الذكريات وأن زرتني سوف أخذك إلى أماكن لم تحلم برؤيتها في إيطاليا وهناك أرد لك الصاع صاعين وأنبش معك كل تاريخ عانة و(راوة)، أكمل فأنا أمزح معك ليس إلا.

طيب:

جئت إلى صلاح في الموعد المحدد بعد أن أخذت إجازة ساعتين من العمل بحجة الذهاب لفحص عيوني في المستشفى.

وهكذا التقيت بصلاح من جديد، فطلبات صلاح كانت بمثابة الأوامر بالنسبة لي.

بعد جرعة من المنشطات الحماسية التي ألقاها صلاح على مسمعي وبأسلوب خطابي، مذكرًا إياي برجولتي «والتي لم أكن قد تحسستها بعد» محذرًا إياي من الارتباك والكلام الزائد، ثم شرح لي كيف تتم عملية شراء تلك الحروف: «ستشتريها بحجة أن المطبعة التي تعمل فيها بحاجة إليها». وكانت كميات الحروف وأنواعها مكتوبة بقائمة دسها في يدي.

اشتريت تلك الحروف بيسر بعد أن أعطيت بعض التفصيلات المشوشة عن المطبعة التي أشتغل فيها، وبعد أن دفعت أثمانها رحت أنقلها إلى صندوق الدراجة «البايسكل» وأصفها في داخل الصندوق بكل بهدوء.

وفي الزقاق المجاور كان صلاح يحتسي كوبا «استكان» من الشاي يداري به قلقه.

غمرت صلاح فرحة عظيمة عند ما شاهدني وأنا أدفع الدراجة

بصعوبة فترك الشاي ولحق بي مسرعا.

أخذ صلاح الدراجة مني بحملها الثمين، وودعني مقبلا واختفى.

لم يظهر صلاح بعدها إلا بعد مرور عدة أشهر، وبمهمة جديدة هذه المرة.

كان هذا الشاب المتحمس ينجز المهمات التي يكلف بها بكل جرأة وإبداع يلفتان النظر.

ظل الهدوء والحياء أول ما تراه في وجه صلاح كأنه لم يتغير رغم تكامل رجولته، وبدت ملامحها واضحة على وجهه بشكل يبعث الإعجاب بعد أن راحت تزين وجهه الصبوح شوارب كثة شذبها بعناية.

كان صلاح يبتكر طرقا مثيرة في تنفيذ مهماته الحزبية في كل مرة، وكانت تلك المغامرات تثير إعجابي فيدفعني ما فيها من تحدي للمشاركته فيها والانخراط بها أحيانا بجراة تمتزج باللذة، وعلى الرغم من تباين دوافعنا كنا ننجز مهام محرمة بمقاييس الدولة ونظامها البوليسي ودون أن أدرك خطورة ما أقوم به وما هي عواقبه.

تعرف أن قاسم ظل نزيل السجون الدائم، فكان سجانوه يطوفون به في سجون العراق من سجن إلى آخر.

نقل هذه المرة من سجن «نقرة السلمان» المرعب إلى سجن

بعقوبة الذي بني بإشراف النقطة الرابعة الأمريكية، وكانت حيهن شديدة الحرص على زيارة ابنها البكر في كل تلك السجون، ورسائل صلاح الحزبية كانت ترافقها دائما، وبتخطيط ودعم من صلاح ورفاقه.

استعار صلاح ذات يوم حذائي وذلك قبل موعد زيارة السجناء المعتادة بيومين لم أفهم في حينها ما سرّ اهتمام صلاح بحذائي الذي اشتريته منذ مدة قليلة من مخازن شركة باتا لصناعة الأحذية الجيدة فقياس قدمي أكبر بكثير من قياس قدم صلاح ولكن ليفعل به ما يشاء لا فرق عندي ولو إنني كنت معجباً بذلك الحذاء.

أعاد الحذاء لي في يوم زيارتنا لسجن بعقوبة، بعد أن خبأ فيه رسالة سرية هامة، وطلب مني إعطاء الحذاء الذي لا يزال جديدا لرفاقه في السجن، وخص لي أسم أحدهم.

كنت قلقا حقا حينما ذهبت مع أمي في اليوم التالي لزيارة قاسم في ذلك السجن، والذي بني في طرف المدينة.

مر كل شيء بشكل طبيعي فلم ينتبه أحد لما ينتعله حدث جاء لزيارة أخيه وأثناء تلك الزيارة جاء ذلك الشاب الذي وصفه لي صلاح، فأخذ الحذاء الذي ظلت ترافقه نظراتي فأنا لم «أشبع» من لبسه بعد، والحقيقة كنت أظن أنه سوف يعيده لي قبل انتهاء الزيارة.

لبس الشاب الحذاء الجديد واختفى، ثم عاد ولكن بحذاء غيره.

وكم كانت حسرتي على حذائي الذي فقدته كبيرة.

انتهت الزيارة بسرعة، وهب الناس إلى أحذيتهم التي اختلطت بعضها ببعض لعدم وجود(كشوانجي)[1]، وبعد أن ذهب كل في دربه، احترت ماذا أصنع بالحذاء الصغير الذي جلبوه له،

لا أعرف كيف استطعت أن أحشره فيه قدمي، ربما الخوف من جلب انتباه الشرطة أجبرني على ذلك!

المشكلة الأهم كيف استطيع السير بهذا الحذاء اللعين عشرات الأمتار دون مشاكل، لم أستطع رميه والتخلص منه والعودة حافي القدمين، من يعرف قد تكون رسالة مهمة قد زرعت في أحشاء ذلك الحذاء العتيق.

في الحافلة العائدة إلى بغداد، رميت الحذاء على كتفي بعد أن ربطت شرائطه، فتحررت قدماي من سجنها.

حينما عدنا إلى بغداد وجدنا صلاح بانتظارنا فرحت أروي له قصة الحذاء ضاحكا من عدم فطنة رفاقه في السجن حيث جلبوا لي حذاء اصغر من مقياس قدمي بكثير.

---

[1] الكشوانجي كلمة أعجمية تطلق على الشخص الذي يهتم بأحذية زوار المراقد المقدسة، يستلمها ويعطي صاحبها رقا ليعود به فيأخذ حذائه.

لكن صلاح وبعد أن وضع الحذاء في كيس من الورق السميك كان قد جلبه معه استشاط غضبا عندما علم بالقصة، وتأسف لمعاناتي من العودة بحذاء ضيق، وعصب على غير عادته وأقام الدنيا وأقعدها، على الأقل أمامي ولكنه أخذ ذلك الحذاء اللعين وغادر مسرعا.

ظل صلاح بعيدا عن عائلته ناذرا حياته وشبابه لأحلام لو تحققت لنزلت جنه الله على أرضنا القفرة الجائرة هذه، ولعاش الناس فيها سعداء ولكن لله حكمته في امتحان عبيده.

هل كانت جرأة صلاح تهورا وطيش شباب، أم كانت نتيجة إيمان راسخ بقضية عادلة دفعته للتضحية بشبابه من أجلها؟

تصور في إحدى المرات أخذ رفيق طفولته الذي هو (أنا) معه إلى تاجر من تجار سوق (الشورجة) وسط بغداد، وراح يساوم ذلك التاجر على استئجار خان يعود له، يقع في سوق الصدرية، وهو واحد من أسواق بغداد الشعبية لاستخدامه كمطبعة، وبعد مساومات مرهقة اتفق مع ذلك التاجر على بدل الأجرة الشهرية لذلك الخان، ثم وقع معه عقدا، ولا أعرف بأي اسم وقع ذلك العقد ودفع له النقود المتفق عليها وأستلم المفاتيح.

استأجر صلاح شاحنة صغيرة وبعض الحمالين، مع بكرة رافعة وراح ينقل مطبعة الحزب الشيوعي السرية إلى ذلك الخان في وضح

النهار، دفع أجور الحمالين والسيارة، وأبقاني معه، فانهمكنا في تجميع المطبعة المفككة، وإعدادها للعمل وكأننا في شارع المطابع.

ألقي القبض على صلاح عام 1957 في وكر مطبعة الحزب في بغداد، وسجن على أثرها مدة خمس سنين، لكنه لم يمكث في السجن كثيرا، فقد حررته ورفاقه، ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958 التي يعتز بها العراقيون كثيرا.

عاد صلاح ليعيش مع عائلته من جديد، بعد أن التأم شمل تلك العائلة، فقد حررت الثورة قاسم أيضا من سجنه.

فسكنت الأسرة في بيت تتوسطه نافورة للمياه ونخلات باسقات مطلا على دجلة، وكانت تلك أيام سعادة لم تدم طويلا.

لم يذق الناس في العراق طعم الحرية إلا سنين قليلة، في ظل ثورة الرابع عشر من تموز، حتى قامت الشرطة بمصادرة تلك الحريات وكأنها سلعة مهربة!

اعتقل صلاح مرة أخرى وكذلك زج بقاسم في السجن من جديد، وهذه المرة بحجة اشتراكهم في مظاهرة لنصرة الشعب الجزائري!

كانت مدة حكمهم هذه المرة خمس سنين، ورحّل قاسم إلى سجن الموصل، ورحّل صلاح إلى سجن الرمادي، ولم ألتقي به بعدها أبدا.

جاء انقلاب عام 1963 فأخذوا صلاح من سجنه وعذبوه إلى حد

الموت، في واحد من أقبية قصر النهاية بطريقة وحشية.

روى لي شاهد عيان قصة تعذيبه حيث قال إنهم أي جلاوزة الحكم الجديد علقوا صلاح من قدميه في المروحة السقفية، وراحوا يلعبون برأسه كرة قدم، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة دون أن يضعف.

الجلادون قتلوا صلاح بدون محاكمة وبدون اتهام أصلا وبكل وحشية وهو في عز شبابه فلم يكن قد تجاوز الثلاثين من العمر.

لم تترك حيهن بابا إلا وطرقنه في بحثها عن رفاة إبنها.

ظل المسئولين يرسلونها من مركز للشرطة إلى آخر، ومن مستشفى لأخر حتى عثرت على رفاته في مقر الطب العدلي مقطعة وملمومة بكيس من القماش فأخذته ودفنته في مقبرة المندائيين في أبي غريب، وظلت تنوح عليه حتى لحقت به وأوصت أن يدفنوها معه، وهذا ما جرى.

الجزء الخامس
بستان نديم

لم ألتق بسيف الدين بعد تلك الزيارة، ولم يذكر هو يوما في مكالماته التلفونية شيئا عن قصة اللطلاطة بعد أن أنهى أهم فصولها. ولكنه أهملها، أظنه لم يجد فيها غير ذكريات تعاقبت عليها السنون فشوشتها،

ربما وجدها لا تختلف كثيرا عن العشرات غيرها من القصص التي عاشها أغلب العراقيين، سوى اختلاف في الأماكن والأشخاص، فالحرمان والقهر والثورة وهذه طبيعة العراقي في كل العصور فطوى صفحة عنها.

لكن نديم بعد أن سرد قصته لسيف الدين لم يجد هذا الأخير رغبة في وضعها بكتاب أو ربما لم يجد الوقت اللازم لذلك فأعطاني مسوداتها حين التقينا في دمشق قبل سنتين وترك لي الخيار في التصرف فيها كما أشاء.

وقبل أن أنقل لكم وبتصرف تلك القصة، وجدت أنها لم تنتهي بعد، فحاولت أن أكتب لها نهاية، معتمدا على المعلومات التي أعرفها عن جنوب العراق وعادات أهله هناك، وهكذا رحت أصفّ الكلمات والجمل إلى بعضها عسى أن أنهي بها قصة اللطلاطة محاولا تقليد نديم في طريقة سرده، فإذا بها جاءت هزيلة لا يقبلها سياق القصة، فاضطررت عندها لإتلاف كل ما كتبت ورحت أبحث عن عنوان نديم عله ينهيها هو كما يشتهي.

علمت من سيف الدين أن نديم اتخذ من الدنمارك وطنا بديلا، فسكن قرية غافية بين غابات البلوط.

لم يكن السفر إلى الدنمرك هينا على طاعن في السن مثلي أثقلت مفاصله الآلام بعد أن أكل الزمن غضاريفها ولكنني وجدت نفسي مضطرا للسفر إلى هناك وربك يسهل.

لا أعرف الكثير عن نديم وخشيت أن يردني خائبا ويذهب كل عنائي هباء، ولكنني عند لقائي به، وجدته إنسانا متعاونا إلى أبعد الحدود، حتى أنه أصر على استضافتي عنده في بيته المتواضع والجميل أيضا.

يعيش نديم في مدينة صغيرة استلقت غافية وسط غابة من أشجار البلوط انعكست ظلالها على بحر الشمال، وعلى الرغم من

جمال تلك المدينة وسهولة العيش في هذا البلد، لكنه لم يستطع تحمل رتابة الحياة هناك وظل يشغل نفسه في مجالات عدة منها النحت والكتابة والسفر وغيرها.

بادرته حين التقينا وبعد مراسيم التعارف والتحية قائلا:

سيدي إنه كرم منك أن تستقبلني بهذا الترحاب، وأرجو منك أن تتفضل على هذا العجوز الذي أمامك بتكملة قصة اللطلاطة التي قصصتها على سيف الدين ذات يوم، وبنفس الأسلوب إن تكرمت فإنني لم أفلح في وضع نهاية منطقية لها رغم محاولاتي المتكررة.

راقت لي شخصيا قصتكم، وربما ستعجب القراء أيضا، وقد يجدون فيها دروسا في المحبة وعبراً.

أجابني نديم مازحا، أخي الكريم عبد الإله أولا لا تتحجج بكبر السن فأنا أراك لا تزال شبابا ما شاء الله.

دعك من أبي اسحاق الصابي الذي استشهدت به قبل قليل.

«قد كنت أخطو فصرت أمطو وزاد ضعفي فصرت أعطو»

لقد شاهدتك كيف كنت ترمق مفتشة التذاكر ذات القد الممشوق في القطار، تلك النظرة التي ذكرتني حينها بسيف الدين، والذي انقطعت أخباره عني منذ زمن طويل. الظاهر إن التصابي عدوى

يصاب بها الكهول المهاجرون من أبناء جلدتي. ثم لا تحاول استدرار دموعي فإنها قد جفت منذ ذلك اليوم الذي رحت أترحم فيه على من مات من جلادي العراق المتعاقبين بعد الذي نراه اليوم، وقد اختلطت دموعي بمدامتي كما قال صاحبك أبو اسحاق الصابي:

«تـــوردّ دمعـــي إذ جـــرى ومـــدامتي
فمن مثل ما في الكأس عيني تسكب
فـــوالله مـــا أدري أبـــالخمر أســـبلت
جفوني أم من عبرتي كنت أشرب»

كما أن إطنابك في مدح ذكريات مشوشة لا تهم غيرنا نحن المندائيون، لا ينطلي على نديم ولن يجدي نفعا معه فادخل مباشرة للصول إلى هدفك، قل إنك تريد أن تنشر عنا نحن المندائيين شيئا فالكتابة عن المندائية أصبحت صيحة مودة هذه الأيام، ودعك من العبر والدروس، ورغم ذلك أبشر خيرا سأكتب معك نهاية لتلك القصة ما دامت تهمك إلى هذا الحد، وتجشمت عناء السفر من أجلها كما تفضلت ولا أسهل من ذلك. ونهاية القصة ستكون عن نديم حتما، وها هو نديم أمامك ولا تزال ذاكرته ممتازة وشهيته للحديث لم تفتر بعد، ولكن لي شرط هو أن لا تكثر من مقاطعتي أثناء الحديث، أو تغفو مثل سيف الدين وتتركني أحدث نفسي كالأهبل.

- لك ذلك سيد نديم، وستجدني أذانا صاغية وفماً مغلقاً.

بالمناسبة فإن نديم هو اسم غير حقيقي أختاره لي سيف الدين أما لماذا نديم بالذات؟ فلا علم لي، ربما مرّ عليه هذا الاسم في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني! أو في كتاب ألف ليلة وليلة، وهذا هو ديدن سيف الدين معي، رغم معرفته الحقة أنني آخر من تنطبق عليه تلك التسمية.

وكل الأسماء التي ذكرت في القصة هي مستعارة أبتدعها صديقنا ليقول بعد ذلك أنه أسهم في كتابة قصة اللطلاطة وكما يقول المثل الدارج عندنا في العمارة:

(حطلك حبة وصير شريك)

نديم الذي يحدثكم اليوم، رجل في نهايات العمر، ابيض ما تبقى من شعر رأسه، كثير الجدال، لكنه لا يزال يحب الحياة مثلكم ويحب المرح والنكتة،أصر على أن يحدثكم هو عن نفسه مباشرة.

ربما خشي أن أبوح ببعض أسراره التي لم يبخل علي سيف الدين بسردها، وحق له ذلك، فأنا أنسى بعض الحدود عندما أسترسل بالحديث. ولم أجد مبررا آخرا لإصراره الذي اضطرني إلى الاستجابة لطلبه.

سأترككم قرائي الكرام مع نديم ليصدع رأسكم بما يسطره تحت،

وأنصحكم بالكف عن المتابعة، إذا أحسستم بالتعب أو الإرهاق، فلا شيء أهم من راحة البال، وحديث نديم لا ينتهي كما قال لي سيف الدين.

و هكذا بدأ نديم حديثه الذي أسجله هنا بأمانة كباقي أجزاء القصة، دون شطب أو إضافة، إلا ما ندر:

قال نديم، لابد إن سيف الدين لم يحدثك عن (البشتكة)[1] وصول (الجعاب) عندما كتب عن اللطلاطة.

ما هذه البداية! لا مع الأسف لم يحدثني عن ذلك. ولكن تفضل حدثهم أنت عن استاذ نديم.

طيب، والحديث هنا لنديم :

في آخر صف من بيوت اللطلاطة المجاورة للمقبرة، عاشت امرأة فقيرة مع أبنتها العرجاء التي كنا نناديها رهيفة!،

نادتني تلك المرأة ذات يوم أثناء لعبنا أمام بيتها، وكنت حينها في

---

[1] البشتكه خشبة عرضها ما يقارب العشرين سنتمتر وطولها ثمانين ربما ثبت في نهايتها صفين من المسامير الحديدة بطول عشر سنتمتر تستخدم لتسريح الصوف وجعله قابلا للغزل والعملية تسمى هناك «يبشتك» أما الجعاب فهي عظمة الركبة في الخراف يلعب بها الأطفال بعد أن تجف ويضعون بعض الرصاص في واحد منها ليكون ثقيلا وهو ما يسمونه الصول. ومنها ضيع صول جعابه.

الصف الأول الابتدائي، ورجتني أن أكتب لها رسالة!

ركضت إلى البيت وجلبت قلما، أو قل نصف قلم، وكان من نوع «أبو المساحة»، والذي دخل اللطلاطة لأول مرة قبل شهر تقريبا، جاء به خالي من أمريكا، وقد أهداني واحدا من تلك الأقلام، ولكن أبناءه غضبوا كون أن أحداً غيرهم يمتلك مثل تلك التحفة، فهجموا على أخوكم نديم وكسروا القلم نصفين، احتفظت بالجزء الذي فيه المساحة للمناسبات المهمة، ورحت أستعمل الجزء الثاني، ولا أذكر أيهما استعملت في كتابة تلك الرسالة.

أخذت معي من البيت أيضا ورقة اقتطعتها من دفتري، وكان هذا كرم مفرط له ما يبرره، فقد وعدتني المرأة بصول جعاب لم يخلق مثله!.

جلست بقربها لنكتب الرسالة، ولم يكن عندها في البيت ما يكتب عليه، فجاءت لي ببشتكة ملساء تختلف عن ما عرفته في بيتنا أو في البيوت الأخرى، والتي لا يخلو منها بيت، فكانت مسامير تلك البشتكه أصغر من تلك التي تستعملها أمي في تمشيط وتسريح صوف الأغنام، صفت المسامير الدقيقة هنا بشكل متقارب جدا وكأنها أسنان المشط. وعندما سألت أم رديفة عن سبب ذلك، شرحت لي كيف أن خيوط الصوف الرفيعة جدا، والتي تغزل من شعرتين أو ثلاثة لا

يمكن غزلها إلا بعد أن يسرح الصوف بمثل تلك البشتكة.

- ولكن يا خالة، لماذا يجب أن تكون الخيوط رفيعة إلى هذا الحد، ألا يتعبك غزل تلك الخيوط؟

- العيشة يا ولدي، إنني أغزل خيوط «الخاجيّات»[1] الغالية الثمن الرفيعة الخيط. أكتب يا خالة أكتب وكفاك أسئلة.

لا أذكر محتوى الرسالة وكيف كتبتها، ولمن كتبت، وكيف أرسلت، ولكنني أذكر صول الجعاب الذي كان مكافأتي الأولى لقاء ما تعلمته في المدرسة.

جعلني صول الجعاب العجيب هذا أتغلب على كل أقراني في تلك اللعبة، ولمدة طويلة، إلى أن انتزعه أحدهم مني ذات يوم ورماه في النهر. كان ذاك اليوم، يوما مشهودا ظل محفورا في ذاكرة اللطلاطة (نديم ويضيع صول جعابه) وحيهن موجودة؟

- عزيزي نديم، الرحمة واجبة، رفقا بنا، ودعك من هذه التفاصيل، المملة وحدثنا عن ما هو نافع.

---

[1] الخاجية هي عباءة الصوف الرجالية والتي تحاك من الخيوط الرفيعة تكون شبه شفافة وعلامة من علامات الغنى والجاه والبشتكة هي أداة تتكون من لوح من الخشب ثبتت في راسه صفوفا من المسامير على شكل صفوف كالمشط يسرح فيا الصوف قبل غزله. أما الجعاب فهي عظمة ركبة الخروف يلعب بها الأطفال.

- طيب إذا لم تجد في كل هذا شيئا نافعا فبماذا أحدثك؟

- لقد قرأت أنا ما كتبته أنت أو سيف الدين عنا، وأقر إنكم لم تبقوا الكثير من أسرارنا وأسرار اللطلاطة ليكتب عنها، وعلى العموم، فلا أظن أن أحدا منكم يستطيع تصور كيف كانت تجري الحياة في تلك القرية الوادعة مهما كتب عنها إذا لم يكن قد عاش فيها فعلا.

كانت اللطلاطة بيتاً كبيراً لعائلة كبيرة. بيوتها غرف في تلك الدار الكبيرة. وساكنوها يتنقلون من بيت إلى بيت بحرية مثلما تتنقل أنت في دارك من غرفة إلى أخرى.

الكل يحب الكل، يتقاسمون أغلب الأشياء فيما بينهم، يساعد بعضهم بعضا، وإن كانت بعض الحوادث والمشادات تحصل بين هذه المرأة وتلك من فترة لأخرى، ولكن السلام هو الميزة الأساسية لتلك القرية.

أذكر كيف شدت إحداهن شعر أخرى (تمالخن من الروس)، عندما أراد زوج الأولى أن يقترن بإحدى قريبات المرأة الأخرى، فهجمت الزوجة على مصدر الشر (الضرة المرتقبة) في عقر دارها مرددة أهزوجة ارتجلتها:

« شنهو دويده[1] وتشاركني ما من سكين أطر بطني»

هل أحدثكم عن العيد الصغير المندائي[2]، وكيف كان سكان اللطالطة يتزاورون صباح ذاك العيد ليأكلوا لقمة أو اثنتين من الرز المطبوخ و«المفرقع» بالزبدة الطرية واللبن الرائب (الطبيخ والروبة)، والتمتع بلهمة من المريس[3]، في كل بيت من بيوتها.

أو عن أهم الأعياد المندائية قاطبة، وهو عيد الكرصة، وكيف كانت تجتمع فيه عائلات عدة في بيت أحدهم، ثم يقفل الباب خلفهم لمدة 36 ساعة[4] لا يفتحون الباب خلالها لأي طارق مهما كانت الظروف، يقضون تلك الساعات، باللعب والفرح والغناء، والتمتع بالطعام الذي يكون مجهز قبل مغيب الشمس.

كان جيرانهم المسلمون في القرية المجاورة يفرحون أيضا بهذا العيد، حيث يودع المندائيون عندهم الأبقار طيلة تلك المدة لأجل

---

[1] دويده اسم إمرأة.

[2] العيد الصغير هو احتفال بمناسبة تعميد هيبل زيوا أحد الملائكة المبجلين لدى المندائيين بعد عودنه إلى عالم النزن من سفرته إلى عالم الظلام من أجل تطهيره بأمر من الحي الأقدم.

[3] المفرقع تعني سكب الذبة الذائبة على النار فوق الرز المطبوخ والمريس هو مسحوق من نوح من الحلويات يحضر من التمر مع حبة حلوه وسمسم.

[4] يعتقد الصابئة المندائيون أن لكل منهم ملك حارس وهؤلاء الحراس(الناطري) يعرجون في هذا العيد إلى السماء وتستغرق رحلتهم 36 ذهابا وإيابا، وعلى المندائيين أن يتجنبوا كل حي غريب عنهم، ليس من طائفتهم خوفا من أن يصابوا بمكروه.

العنايـة بهـا فينتفـع هـؤلاء مـن حليبهـا. لا بـل كـانوا يشـترطون علـى أصـحابها أن تجلـب لهم الأبقـار مـع غذائها من الحشيش الكـافي لتلك المدة، وبذلك يكون الحليب مجانا مئة في المائة.

وكـم كانـت فرحـة الكـل مميـزة بيـوم الطلعـة مـن تلـك الكرصـة سالمين، أنه مهرجان حقيقي.

و على ذكر المهرجان، هل أحدث قراءك عن سفرتي مـع أخـي المرحوم صلاح إلى مهرجان الشباب في موسكو قبل خمسين سنة؟

لا دخيل الله أجبتـه برفق.، فهذا الحـديث لا يخـص اللطلاطـة أولا وقد أرهقت القراء بتلك القصة في أماكن أخرى.

لمـاذا تصـر إذا علـى الحـديث عـن اللطلاطـة وتعـرف إننـي قـد غادرتها وأنا طفل؟

هل تتصور أن اللطلاطة بيوت ونخيل فقط يا أخ عبد الإله؟

قـد لا تتميزهـا عـن غيرهـا مـن قـرى العـراق البائسـة، بعـد أن غادرهـا أهلهـا وتركـوا دورهـم مـأوى للفلاحـين الفقـراء وظـل نخيلهـا ثوابا لكل طارق إلى اليوم؟

في تلك القرية كنا سعداء بكل معنـى الكلمـة لا بفضـل تلـك الـدور البائسة ولكن بمحبة ساكني تلك الدور بعضهم لبعض.

فـي مدينـة قلعـة صـالح شـاهدت السـينما لأول مـرة فـي بدايـة

الأربعينيات من القرن الماضي، عندما عرضوا لنا فلما لا أذكر موضوعه أظنه للتوعية الصحية، في الجهة الثانية من النهر، حيث تجمعنا جالسين على الأرض مساء يوم صيفي، وعرض هناك الفلم على شاشة مؤقتة وكانت ماكنة العرض محمولة على سيارة غريبة الشكل.

في أيام قائم مقام قلعة صالح «الطوخي» زارنا الموسيقي العراقي سعيد شابو في الروضة التي كنا ندرس فيها.، فعزف لنا ألحانا رائعة وكانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها تلك الآلة الساحرة، كان كل ما نعرفه من الآلات الموسيقية هي الدف والطبلة والناي وفي بعض الأحيان تصادفنا الربابة في يد بدوي تجمع الناس حوله فاغري الأفواه.

كانت هناك في مدينة قلعة صالح وفي أربعينيات القرن الماضي روضة للأطفال ولا تستغرب سيدي الكريم. نعم كانت عندنا روضة للأطفال في ذلك الريف النائي في تلك السنين الغابرة، فالحاكم الصالح يصنع السعادة للناس في كل زمان ومكان.

- كان عراق الأمس أكثر حضارة من عراق اليوم، عراق أمريكا وعراق العمائم هل لك علم بذلك؟

- كفى أخي نديم، «مو أخذك الواهس»، دعك من السياسة وحدثنا

عن حالة الناس في تلك الأيام.

- طيب، كانت لأمي صديقة من سكنه الهور رغم كبر سنها كانت قسمات وجهها لا زالت تحتفظ بمسحة أخاذة من الجمال، لم تحدثنا أمي عن بداية تلك الصداقة، ولكنها بالتأكيد كانت تمتد إلى أيام الوالد رحمه الله.

- كانت تلك المرأة والتي اسمها (شميعه) تزورنا بين آونة وأخرى، وكلما تأتي تجلب لنا (عكيد وعنكر) من الهور وتلك سيقان وجذور القصب الذي ينبت في الهور بكثرة أو قل هو المكون النباتي الأساسي هناك وتلك الجذور حلوة المذاق وكأنها سيقان قصب السكر، وكذلك كانت تجلب لنا (الخريّط) المطبوخ بالتمر وهو الذي يحضر من طلع البردي، ودائما كانت تجلب لي طير برهان، حتى أنها في مرة جلبت لي طير الهدهد، ودفع بعضهم مبلغا ليس بالقليل لأجل الحصول على ذلك الهدهد، يقال إنهم يستخدمون عظامه للسحر.

- كانت شميعة تقابل قوري الشاي، وتظل تشرب منه من الصباح إلى المغرب، إدمان! أذكر عصابة رأسها وكأنه (تاير) سيارة.

- هل ترى يا صاحبي تلك الأشكال الفنية المعلقة على الجدار الذي أمامك، حكتها بيدي، أنها على شكل حيوانات وبشر من خوص النخيل، هل تعرف بدايات هذا الفن الغير مطروق؟ طيب سأحدثك

عنه:

وقبل أن يسمع نديم إجابتي راح يشرح مسترسلا، وكأنني لست موجودا أصلا:

- في بستان النخل في اللطلاطة، توجد أصناف من التمر، مثل البريم والجبجاب، والذي تقص أعذاقه قبل نضوجها(خلال)، ثم تطبخ بقدور كبيرة، وعندما يغلي الماء مرة واحدة تخرج العذوق من القدر، وتجفف على السطح تحت أشعة الشمس. ومن النخيل أنواع يترك التمر فيها على الأشجار حتى يجف، مثل الديري، أما الباقيات فلكل صنف طعمه ووقت تناوله. وألذه ما يؤكل رطبا مثل الشكر والقنطار والأستعمران، ومنه ما يؤكل ناضجا مثل الحلاوي والدقله والخضراوي وغيرها الكثير، أما البرحي والبريم فهذا النوع يؤكل بجميع مراحل النضوج وحتى قبل أن ينضج أي لازال مبسرا (جمري، طوش).

- الرحمة أبو فلان، ما علاقة هذه النشرة المطولة بالأشكال التي تود أن تحدثني عنها؟

- الصبر طيب يا أخ عبد الإله طول بالك قليلا ودعني أسترسل، واقف (بزوري)، اتركني أعيش ذكرى الأيام الحلوة !

- تفضل، لا تزعل.

- كنا ونحن صغار نتابع نضوج التمر في ذلك البستان في اللطلاطة، وقبل أن ينتهي موسم قطاف كل نوع من تمر النخيل، كنا نحوك (نسّف) حقائب صغيرة «هندال» لا تتعدى العشر سنتمترات طولا ومثلها عرضا من خوص النخيل، ونختار التمرات التي نشتهيها فنقطفها من عذقها مباشرة ونصفها في تلك الحقائب، ثم نغلقها بالخوص أيضا ونعلقها على تلك النخلة. وبعد أن ينتهي موسم التمر، وينشغل الكبار بهموم الدنيا، نكون نحن الصغار قد خزّنا ما نريد من التمر فوق الأشجار للأيام القادمة، وهناك التزام بيننا وبين الكبار، بأن لن يمسوا ذلك المخزون من التمر تحت أي ظرف.

وهنا في غربتي وحنيني لهندال من التمر، رحت أجمع خوص السعف حيثما أجد نخلة، وأجلبه أحيانا من اسبانيا وغيرها وأتركه يجف ثم أنقعه وأشتغل به من جديد تماما كما كنت أصنع في اللطلاطة، أنسج منه هنا أشكالا فنية كما ترى من حيوانات وطيور وبشر وفي هيئات مختلفة، ورحت أقيم لها معارض في مدينتنا حازت على الإعجاب.

ضيفي العزيز عبد الإله، لا تلحّ كثيرا على اللطلاطة، فتثير شجوني.

شيصير يا ربي شيصير لو تبدل هل المصير

وأرد باللطلاطـــــة أعـــــيش وأرضـــه بنعـــال وحصـــير

بعد أن انتقلنا إلى بغداد، تنقلت من عمل إلى آخر منذ الطفولة، وكل عمل ترك أو قل حفر في الوجدان ذكريات لا تمحى.

تحدثت أنت عن «عربة» التفاح وعن بيع «الحامض حلو» في شوارع الدوريين والمطابع وغيرها.

ولكن بعد الصدمة التي تلقيتها من منظر إعدام «فهد»، وجد لي صلاح «عملا» آخر كما أسماه في حينها، وكان هذا العمل من نوع خاص جدا.

أخذني صلاح لإحدى الدور في منطقة «الأزروملي» والتي تقع بعد مستشفى العزل (مستشفى الكرامة اليوم)، وفي تلك الدار كانت تسكن إمرة كردية كبيرة السن، ومعها رجل طويل القامة كان يقضي جل وقته جالسا في الغرفة الكبيرة لا يبرحها، أمامه كميات من الرسائل والورق ذكرني ببشتكة أم عريفه، ووعاء فيه ماء تعلو سطحه رغوة سوداء لم أتبين ماهيتها، ظننته أول مرة ساحرا أو شيخ طريقة.

كان عملي هو آخذ الرسائل التي يكتبها هذا الرجل، وأضعها في جيبي بكل حرص، وكأنها ليرات سلمان أو متفجرات قد تثور في أية لحظة، ثم أوصلها إلى رجال يحدد لي مكانهم وهيئاتهم، وبعد أن

يقولوا لي كلمة السر أعطيهم الرسالة وأستلم منهم بالمقابل رسائل أخرى، وتكون ملفوفة أيضا وكأنها حرز من الأحراز.

لم يفرحني في ذلك العمل غير كلمة السر وطريقة تبادلها، والتي تتغير في كل مرة.

كان صلاح يوصيني محذرا في كل مرةّ، وذلك الرجل أيضا يحذرني بأن لا أدل على مكانه إذا ألقت الشرطة القبض عليّ مهما جرى ومهما عذبت.

كنت معتدا بنفسي وأنا أخوض تلك المغامرات والمطاردات مع الشرطة، التي أخذت قاسم منا، ثم إنني سوف لن أخذل صلاح مهما جرى، ولكن ظل هناك سؤال يثقل خاطري، ترى هل سوف يعتبرونني جبانا ومتخاذلا إذا عذبت ورحت أبكي، فسألتهم هل يجوز لي أن أبكي إذا ضربتني الشرطة؟

كان ذلك الرجل عندما يستلم الرسائل مني، يقرؤها مباشرة ثم يحرقها بعود ثقاب «أبو الثلاث نجوم» ثم يرميها في الإناء المملوء بالماء، وعندما سألته ذات مرة عن محتويات الإناء رد علي مازحا إنه «طبيخ»!.

لم أصمد طويلا في هذا العمل، والذي لا أعرف كم هو أجره، فكان صلاح يتقاضاه كما قال لي.

هكذا وبكل بساطة عملت مراسلا لسكرتير الشيوعي العراقي في ذلك الوقت بهاء الدين نوري دون علم مني.

اشتغلت ذات مرة صانع «جايجي» في شارع النهر وكان دكانا صغيرا يبيع الشاي والقهوة للمحلات والفنادق المجاورة. كان صاحب العمل يجبرني على غسل الصواني والمواعين والدلال والإستكانات، فجر كل يوم بالماء البارد والرمل، حتى تشققت يداي.

أخذت مرة صينية شاي إلى مكتب صاحب معمل للمعكرونة قريب منا، وكان الرجل من الأرمن، يدخن «الجروت» مثل صديقك سيف الدين ولكن النظارات التي تعلو أنفه ليست من نوع ريبان وإنما هي نظارات طبية سميكة (جعب بطل). كادت خدود ذلك الرجل تتنفجر من فرط السمنة. وكنت فرحا بإيصال صينية الشاي إليه طمعا «بخشيشا» بالإكرامية. ولكنه طردني خارجا عندما نظر إلى يدي من خلف نظاراته «جعب البطل»، فأخذت الشاي بصينيته وجلست على السلمّ خارج مكتبه أبكي خوفا من أن يطردني «أستاذي» من العمل، ولكن الجايجي جاء يبحث عني بعد أن كثرت عليه الطلبات، فوجدني أبكي، شرحت له الأمر فطيب خاطري، وعالج المسألة على طريقته، أخذ لهم صينية شاي جديدة وأعتذر لهم على الأغلب. أما أنا فطز... كما يقال.

مرة أوصلت صينية شاي إلى إحدى الغرف في الفندق المقابل وكان اسمه، فندق جبهة النهر، وعند دخولي الغرفة المطلوبة، شاهدت مغنيا معروفا في ذلك الوقت، يعزف على العود وراقصة إيرانية ترقص أمامه بكل حماس على تلك الأنغام، وقفت مشدوها مثل الأبله، وأنا أرى تلك السيقان البيض وهي ترتجف طربا وإثارة، سال لها لعابي رغم صغر سني، أخذت الراقصة تردد «برو برو» وأنا لا أعي ما يدور حولي، حتى أنهم أوقفوا ذلك الطقس المرعب وقادوني من يدي إلى خارج الغرفة!

بعدها اشتغلت لدى بقال في محلة الأزروملي، وذات يوم وأنا أبيع الشمام أمام المحل ظهرا،و كنت وحدي حينها، جاءني بدوي شديد السمار (صلبي)، وراح يساومني على كوم الشمام الذي افترش الطريق، وكان كل الشمام عدى واحدة من صغار الحجم وعدده سبعة عشر بطيخة بالتمام والكمال، وبعد المساومة المعهودة على السعر، اشترى الشمام كله وجلس يأكله حتى أتى علي البطيخة السابعة عشر، ثم راح يحك القشور بأسنانه من جديد، لم أرَ في حياتي إنسانا يأكل كل هذه الكمية من الشمام وإلى الآن وأنا لا أصدق ما جرى ومنظر ذلك الرجل ماثل أمامي.

عملت أيضا في المطابع وفي معامل الحدادة ولكنني عدت لمهنة

أجدادي وأصبح عاملا في ورشة لصياغة الذهب، وظلت تلك مهنتي إلى أن أكملت الدراسة الإعدادية في المدارس المسائية، سافرت بعدها إلى موسكو بزمالة دراسية ساعدني رفاق صلاح بالحصول عليها. عدت بعدها إلى العراق مهندس بناء.

لن أكلمك عن حياتي في موسكو، أظن ذلك ليس موضوعنا وهو حديث ذو شجون، والمستقبل أمامك إذا بقينا أحياء، ولكن إليك عينة من حياتنا هناك.

بعد وصولنا إلى موسكو، ولكوني أخا لقاسم وصلاح اتصل بي المسئول الحزبي للطلبة العراقيين في الجامعة، ودعاني إلى حضور اجتماع تعارف، وبالمناسبة كان ذلك الطالب عراقي جاء قبلي إلى موسكو بعام واحد، دفعني الفضول لمعرفة الحياة الجديدة وماذا سيقوله هذا (الرفيق).

حضرت حسب الموعد المقرر وكان الاجتماع في غرفة الرجل الذي دعاني وطلبة آخرين، وبعد استعراض سريع للحياة في موسكو، نصحنا بأن نكون عند حسن الظن، وأن نعمل على رفع سمعة الطلبة العراقيين وآخر نصيحة كانت بأن نكون معتدلين في كل شي، وظلت تلك النصيحة تعيش معي إلى اليوم لا تفارق مخيلتي وتجعلني أبتسم كلما اقتربت من امرأة، وإليك نص نصيحته:

(علـى كـيفكم يـا رفـاق بكـل شـي حتـى لـو عاشـرتم رفيقاتنـا السوفيتيات فعلى كيفكم أيضا!).

زين هاي شلون (ترهم) ونحن قد أوصينا في هذه الدنيا وفي جنان الآخرة أن نعاشرهن (دحما دحما)[1]؟

عدت إلى بغداد كما قلت لك، وأنا أحمل الشهادة (الكبيرة)، وكانت عودتي إلى العراق عن طريق الكويت، وهناك اشترى لي أحد الأصدقاء بنطلون جديد وقمصان جديدة تتلاءم مع وضع العراق وطقسه الحار، فالبنطلونات السوفيتية العريضة لا تصلح هناك كما قال لي.

بعد أن ختم جواز سفري على الحدود الكويتية في مركز المطلاع، وكان المطلاع هو حدودنا مع دولة الكويت في ذلك الوقت، وبالمناسبة لا أعرف آلية وضع الحدود ومتى تتبدل وما حاجة البشرية إلى الحدود من الأساس.

وصلت بغداد وكلي لهفة للقاء الأهل والحزن يملأ قلبي أيضا كوني قد فقدت صلاح وسوف لن أراه وإلى الأبد.

في بغداد بدأت حياتي من جديد وكل شي أصبح غريبا بعد غياب سبع سنين متواصلة. فلم يكن العمل متوفرا في بغداد حتى للمهندسين

---

[1] الدحم هو الدفع الشديد.

في تلك الفترة،

ذات مرة أعلنت وزارة النفط عن وجدود عشرة وظائف هندسية شاغرة، فتقدم لطلب العمل ثلاثمائة مهندس، وإذا وضعنا نظام الواسطة في المعادلة، فكم سيكون نصيبي منها؟

وهكذا رحت أناضل من أجل الحصول على أي عمل يسد الرمق دون جدوى متذكرا أيام البؤس الغابرة وعربانة التفاح، حتى إنني فكرت بالعودة إلى ورش الصياغة، ولكن حتى في هذه لم أوفق بعد أن تركتها كل تلك السنين.

أخيرا وجدت وظيفة مترجم من اللغة الروسية إلى العربية في معمل لتجميع الساعات، فالتحقت بتلك الوظيفة دون مساومة، وعند نهاية الشهر حصلت على عدد من الساعات كراتب شهري وزعتها هدايا.

و أخيرا وبفضل جهود قاسم وعلاقاته وجدت وظيفة مهندس عند أحد المقاولين. وهكذا تنقلت في العمل من مقاول إلى آخر إلى أن جاءت الخطة الانفجارية في سبعينيات القرن الماضي، عندها رحت أمارس العمل لحسابي الخاص وأخذت مقاولات من الدولة مباشرة وأحيانا مشاركة مع بعض الممولين.

لم أذكر ذلك استعراضا لتفاصيل حياتي ولكن كل هذا الحشو له

علاقة باللطلاطة أيضا وسترى ذلك.

تعاقدت مع أحد المقاولين في العمارة على بناء بيوت في المجر، وهناك كونت علاقات واسعة مع المهندسين والمسئولين، فطلبت من أحد المسئولين الحزبيين الكبار أن يتوسط لي لأبحث في سجلات التسجيل العقاري في قلعة صالح، عن سندات الملكية لقرية اللطلاطة.

حصلت على تلك التوصية، واستقبلني مسؤول (الطابو) في قلعة صالح بكل احترام، ووضع أمامي كل السجلات ومعها استكان شاي.

رحت أقلب في تلك السجلات التي تآكلت أوراقها لقدمها حتى عثرت على كل مراحل تملك اللطلاطة منذ أن كانت أرض حكومية (أميرية). وجدت أن ملكيتها تعود لأصحابها ومسجلة بأسمائهم ومنهم أبي وأخي قاسم وكان أبي قد سجل البستان بإسمه.

هممت البدء بمعاملة استخراج سندات ملكية اللطلاطة من جديد، ولكن الروتين طويل وكنت مشغولا جدا في انجاز المشروع الذي تعاقدت عليه، فتركت موضوع اللطلاطة لفرصة أخرى ولم تسنح تلك الفرصة طبعا.

جعلني العمل في المجر أن أكون قريبا من ناس العمارة وقراها، كان يعمل عندي في البناء أعداد كبيرة من العمال، وجلهم من سكنه القرى المجاورة. واحدا من العمال كان اسمه(رحيّم) من سكنة القرية

التي أنشئت على أنقاض قرية أم عين.

أحببت رحيّم هذا، كونه يذكرني بأيام «أم عين» وكان شاباً لمّاحاً نشيطاً، لا ينقطع عن الدوام في كل الظروف فدربته وجعلته ساعدي الأيمن في العمل،

ذات يوم جئت للعمل فلم أجد رحيّما على غير عادته، سألت عنه قالوا لي لقد تزوج اليوم، فرحت له وأسفت على تركه العمل فكان رحيم يساعدني كثيرا.

وفي اليوم التالي، وإذا برحيّم مع العمال بانتظاري من جديد.

ها ولك رحيّم ما الذي أتى بك؟ وكيف تركت عروسك؟

أجابني والحسرة تملأ قلبه: العيشة يا (أستاذ)، عائلتنا كبيرة وأنا معيلها الوحيد.

طيبت خاطر رحيّم ووعدته بثلاثة أيام إجازة مدفوعة الأجر إن حدثني كيف وجد عروسه.

- أولا قل لي رحيمّ هل بيضت وجوهنا؟

تململ قليلا ثم أنطلق بعنفوان:

- أستاذ عمرها ستة عشر سنة، وحلوه كلش أستاذ، وانه هل تشوفني صاير بارود، نزلتلك عليها وجان أعضها من هناك وأشلع

صم شعر بسنوني وظل (أعلجّ) بيه.

لم أتمالك نفسي من الضحك أعطيته هدية عرس بسيطة وأرسلته لعروسه كما وعدته لينجز ما بدأه.

عدت إلى بغداد بعد أن أنجزت المقاولة في وقتها، وهناك فتحت مكتبا للمقاولات، وتوسعت أعمالي، كنت أتعاقد على تنفيذ الأعمال الفنية الصعبة، والتي لا يتنافس عليها المقاولون العاديون، وهم كثر في تلك الفترة وبالمئات أن لم نقل بالآلاف.

- الوقت قد أدركنا عزيزي نديم وقريحتك مفتوحة للآخر، أستأذنك الآن وسوف أزورك مرة أخرى غدا إن سمح وقتك بذلك.

- انظر (باوع) إذا ما أخلصّ كلامي اليوم، تره ماكو مرة أخرى، ها مو تقول ما قال لي.

بت ليلتي تلك عنده مضطرا، وظل يحدثني طوال الليل، سوف لن أتعبكم بسرد كل ما حدثني به نديم، ولكنني سأختار مقاطع من حديثه الطويل المتشعب، قد لا تكون المقاطع التي أنقلها لكم مترابطة من الناحية القصصية المتعارف عليها، ولكنني أجدها مناسبة لننهي بها الحديث عن تلك العائلة التي بنت اللطلاطة وعاشت فيها.

انغمس نديم في تنفيذ مشاريع لتصفيه المياه في قرى العراق لحساب الدولة بعقود مغرية، وراح يجمع المال، من أجل أن يبني

لطلاطة خاصة به في بغداد.

في إحدى المرات نفذ مشروعا في قرية صغيرة على مشارف هور العمارة، وهناك راح يبحث عن آثار لسلمان، ولكن دون جدوى طبعا، فقد مرت عشرات السنين على زمن سلمان.

بعد استلامه لموقع المشروع من مهندس الحكومة، أخذ ينقل أليه مواد البناء، من حصى ورمل واسمنت وطابوق وغيرها بواسطة القوارب.

وظف حارسا بأجور شهرية ليحرس الموقع، أسمه جواد ويلقبونه أبو ناجيه، وبعد أيام قليلة سمع نديم إطلاق رصاص بغزارة، يأتي من ناحية مركز الشرطة، والذي يبعد عن موقع عمله بحوالي كيلومتر.

راح يتفقد موقع العمل فلم يجد الحارس الذي وظفه في موقع عمله، وبعد أن توقف أزيز الرصاص تبين أن حارسنا ومجموعة من أخوته قد اشتبكوا مع رجال شرطة المركز، مستخدمين رشاشات أعطاها لهم التنظيم الحزبي لمهمات محددة.

ماذا يجري هناك؟ ذهب نديم ليستعلم الأمر وليطمأن على مستقبل المشروع، وليرضي فضوله قبل كل شيء، وكان لب الخبر كما يلي:

للحارس فتاة جميلة، أحبها شاب من منطقة قريبة من قريتها وبادلته هي الحب أيضا، وعندما جاء لخطبتها من أبوها، طرده وأهله الذين جاءوا معه، وأراد تزويجها لأبن عمها غصبا عنها.

وفي موعد زفافها هربت الفتاة من دار أبيها، والتجأت إلى مركز الشرطة، تبعها حبيبها إلى هناك وطلب أن يعقدوا له عليها في مركز الشرطة.

عندما علم الأب بذلك، جمع أخوته محاولين اقتحام المركز، فجرى تبادل لإطلاق النار بين الطرفين. وظل أبو ناجيه وأخوته يحاصرون مركز الشرطة لأكثر من يوم. ثم جاءت لنجدة المركز قوات شرطة بسياراتها من مدينة العمارة، فسيطرت على الموقف، واعتقلوا أبو ناجية.

أخذ ضباط الشرطة الفتى والفتاة في سيارة عسكرية إلى مدينة العمارة، وبعد أن عقد قرانهما غادر العروسان العمارة إلى بغداد بعيدا عن مشاكل الشرف والثأر، فسكنوا في غرفة في مدينة الثورة.

أخذت الشرطة تعهدات من جواد وإخوته بعدم التعرض للعروسين طيلة حياتهم ثم أطلقوا سراحهم.

لم يستطع أبو ناجية العيش في تلك المنطقة بعد العار الذي لحق به، فأرسل أخوه إلى نديم ليوظفه حارسا بدلا عنه، وأغلق هو داره

وأخذ زوجته وغادر العمارة إلى بغداد.

وككل النازحين من الجنوب إلى بغداد، قصد مدينة الثورة ليعيش فيها، وشاءت الصدف أن يستأجر غرفة في ذات الشارع الذي سكنت فيه ابنته وزوجها، فتدخل شيوخ العشيرة هناك وأصلحوا بينهم.

ومن مشاكل العمل التي مرّت بنديم، والتي أراها تستحق الذكر:

تعاقد نديم على بناء محطة لتصفية مياه الشرب في قرية تابعة لمحافظة الناصرية (ذي قار).

وهذا بالأساس تخصصه وليس هناك ما هو جديد في ذلك، ولكن موقع العمل المخصص لتلك المحطة يثير الحيرة.

بعد أن تقطع خمسين كيلومترا، خارج الطريق العام، في شارع لم يكن معبدا، ستصل إلى مدينة الدوايه، ومن هناك تقطع عشرات الكيلومترات في أرض مالحة في صحراء سيد أحمد الرفاعي، وكما علق نديم، لو بال الحمار هناك على الطريق لأنقطع لشدة الملوحة. وفي وسط تلك الصحراء، أرادت الدولة أن تبني مشروع لتصفية الماء؟

بعد أن استلم الموقع، عاد نديم إلى بغداد، وفي ساعات الدوام الصباحية الأولى جلس ينتظر مدير الدائرة المختصة بهذا المشروع.

التقى بذلك المسئول بعد طول انتظار، وراح يشرح له شكوكه

حـول صـلاحية الموقـع المقتـرح للمشـروع المتعاقـد عليـه (يـدور طلايب)، وكان المسئول من كبار الحزبيين.

رجع نـديم مـن تلـك المقابلـة منزعجـا بعد أن تعرض إلـى تـوبيخ شـديد وتهديـد بـالحبس إن عـاود الاعتـراض علـى أمـور تهـم الدولـة وحدها فقط !

أمور تخص الدولة فقط ! أليست هـي أمـوال النـاس يـا نـاس تبدد عبثا؟ راح نديم يدردم وحده وبصوت غير مسموع.

المهـم أنجـز المشـروع، ولغـرض فحـص المضـخات وصـلاحية المشـروع، اضـطر إلـى اسـتئجار صـهاريج مـن المـاء، وراح يجـرب المشروع أمام اللجنة المكلفة باستلام المشروع.

كل شـيء تـم علـى مـا يـرام، استلمت اللجنـة المكلفـة المشـروع، وقبض نديم المبالغ المتعاقد عليها، ولكنه لم يجد تفسيرا لبنـاء مشـروع ماء في وسط الصحراء، ليس هناك أي مصـدر مـائي قريـب منـه، ولا أي تجمع سكاني على مد النظر؟

بعد سنة عاد إلى ذات المشروع ليجـري الصـيانة المطلوبـة ولكـي يستعيد المبالغ المالية المحتجزة كتأمينات صيانة.

كانت سيارات اللاندكروز هبة من الصناعة اليابانية، استقل نـديم واحـدة منهـا فجـر يـوم صـيفي، مـع نخبـة مـن المهندسـين المكلفـين

بالاستلام النهائي، وبعد أن تناولوا فطورهم في محلة، «السنك» وكانت مؤلفة من الكاهي والقيمر، انطلقوا بعدها قاصدين جزيرة سيد أحمد الرفاعي، وصلوا الموقع بعد عناء كبير، فوجدوا المشروع كما تركوه في العام المنصرم، عدى التراب الذي غطى كل نوافذه.

إذا سافر اليوم واحد منكم إلى هناك، ربما سيجد مشروع تصفية المياه صامدا في وسط الصحراء ينتظر المعجزة،

وأخيرا ارتاح نديم من فضوله الذي ظل جاثما على قلبه سنين طويلة بعد أن كشف لغز مشروع ماء الصحرء هذا أحد المهندسين اللذين كانوا يشرفون عليه عندما التقى به في إحدى دول المهجر بعد سنين طويلة والسر هو :

كانت الحكومة قد أعدت خطة متكاملة لتهجير العوائل الكردية من كركوك وتشمل تلك الخطة بناء مجمعات سكنية لهم في الجنوب وفي المناطق النائية منه، وتجهيز تلك المجمعات بالبنى التحتية الضررية.

وزعت تلك الخطة على الجهات المنوط بها إنجاز تلك المهمة وأحيطت بسرية تامة. ولما كان المسئول عن تنفيذ مشاريع مياه الشرب ملتزما ومتحمسا للفكرة، أنجز العمل المناط به قبل غيره، استجدت ظروف جديدة لدى القيادة السياسية فألغت خطة التهجير أو أجلتها فلم يبنَ أي مجمع سكني أو تشق ترعة في ذلك المكان، وظل

مشروع الماء الذي نفذه نديم وسط الصحراء الشاهد الوحيد ربما على تلك الخطة اللاإنسانية.

ربما تحولت محطة تصفية مياه الشرب اليوم إلى مزار كمرقد لإحدى بنات الحسن!

جمع نديم مبالغ كبيرة من تنفيذ مشاريعه العديدة تلك، وودع أيام الفقر وإلى الأبد. وأخذ يبحث في بغداد عن أرض يبني فيها لطلاطته، وجد ضالته في قطعة أرض وسط بغداد معزولة عن صخبه وضجيجه وقريبة من مركز المدينة.

بعد أن استتب الحكم للسلطة، وراحت تغرف من سيل أموال النفط، استقطعت جزءاً من المطار القديم والذي أصبح يمثل وسط مدينة بغداد بعد أن توسعت المدينة بجنون، ووزعته بمساحات كبيرة على الضباط الكبار «ضباط القصر كما يطلق عليهم» كأراضي سكنية.

أغرى نديم أحدهم بمبالغ كبيرة واشترى منه أرضا بلغت مساحتها ثمانمائة مترا، بنا فيها دارا صغيرة وراح يزرعها بكل ما لذ وطاب من أشجار الفاكهة.

و هكذا أصبح عنده بستان في وسط المدينة، ومعزولا عنها في ذات الوقت، لا يعكر صفوه فيه سوى زقزقة العصافير ونوح الحمام.

لم يكتمل حلم نديم بعد، فليس هناك بستان حقيقي في العراق من دون نخيل، لذا راح يبحث عن أندر أصنافه في بلد النخيل.

هل سمعتم يوما بنخلة اسمها (أم بلاليز)؟ أو (عوينة أيوب) أو الأزرق؟ المهم سافر صاحبنا إلى شثاثة (عين تمر) وجاء بفسيلة من أم بلاليز وأخرى من عوينة أيوب وثالثة من الأزرق وزرعها جنب فسيلة أخرى من برحي جمال الدين جاءته هدية من بساتين مديرية الزراعة في مدينة الفاو.

وأم بلاليز هذه نخلة نادرة جدا، لا تنضج ثمارها إلا بعد أن ينتهي موسم قطاف التمر. أما عوينة أيوب، فتمرها يجف وهو على الشجرة ويكون رقيق السمك فيتكسر تحت الأسنان أثناء قضمه «يقرقش» أما الأزرق فهو تمر ينتقى من عذق الشجرة حبة حبة حبة، فليس كل ما في العذق هو من نفس الجودة، ويكون لين القضم كالعلكة[1] أما جمال الدين، فإنه نوع نادر وممتاز من تمر البرحي الأكثر شهرة بين أنواع التمور.

اختار نديم أجود منطقة في حديقة الدار خلف نافذة غرفة نومه،

---

[1] كان من المفروض أن يعقد في بغداد مؤتمر دول عدم الانحياز، فجمعت الحكومة كل محصل التمر الأزرق لتلك السنة ومنعت بيعه في الأسواق، وذلك ليقدم على موائد الرؤساء كونه أحسن التمور قاطبة. ولكن الموتر لم ينعقد ولم يتذوق العراقي التمر الأزرق في ذلك العام.

ليتطلع إليها كل صباح. فحفر هناك إلى عمق كبير ووضع تربة خاصة جلبها من شواطئ دجلة وسماد طبيعي كوسادة تحت تلك الفسائل.

زرع نديم فسائل النخل هذه صباح يوم ربيعي مشمس بكل تأني. وراحت الفسائل تنمو بسرعة حتى أن سعفة من فسيلة الأزرق أخذت تنقر على زجاج نافذته كلما هب نسيم.

عندما كان نديم يسافر بعيدا عن الدار كان يسأل تلفونيا عن فسائل النخل قبل سؤاله عن أولاده.

وهنا تذكر نكتة بالمنسابة وراح يضحك وقد جاءت عرضا في حديثه وكأنها جملة اعتراضية، تقول النكتة:

(كان عريف الشرطة «دويج» قد أتعب أهل العمارة ومراكز الشرطة فيها بمشاكله، لقد كان مرتشيا ويخلق المشاكل بأية طريق ليبتز الناس).

كلما عوقب هذا الرجل أو طرد من الخدمة، يسافر إلى بغداد ثم يأتي برسالة من أعلى المراجع في وزارة الداخلية فيعيدونه إلى الخدمة من جديد، أو يرفعون العقوبة عنه، حتى جاء مدير شرطة قوي الشخصية وراح ينظم العمارة ونواحيها بنزاهة وعدل، وأول عمل قام به هو، أن عين العريف دويج بستانيا في بيته وتحت رقابته

وأشرافه مباشرة ليخلص من مشاكله.

أوكل المدير مهمة واحدة فقط للعريف دويج، هي رعاية فسيلة نخل نادرة جاءته هدية وزرعها في حديقة داره. حذر مدير الشرطة العريف دويج من أن يهمل رعاية تلك الفسيلة، وتوعده بأقسى أنواع العقاب إن هي ماتت.

فكان المسكين «دويج» يراقب الفسيلة لحظة بلحظه، يسقيها كلما عطش هو، وكل يوم يسأله رئيسه عن «فرخ النخل» هذا.

ذات يوم مرض ابن مدير الشرطة الوحيد مرضا شديدا، فظل مشغول الفكر عليه أثناء دوامه وقلق على حياة ابنه.

جاء العريف دويج صباح ذلك اليوم النحس إلى فرخ النخل، وهز السعف الذي في قلب الفسيلة ليتأكد منها، فسقط السعف في يده، لقد تعفنت الفسيلة من كثرة السقي.

ذهب إلى مركز الشرطة وهو يلطم خده باكيا، استقبله مدير الشرطة صارخاً ها ولك مات؟

أجابه الشرطي وهو يلطم ويبكي بكل حرقة، مات يا سيدي، فراح الأب المنكوب يبكي ويصرخ مثله على فقدان ابنه.

اجتمع ضباط الشرطة حوله وتجمهر الأنفار، وكل واحد منهم يزايد الآخر في إبداء حزنه وصراخه مشاركة منهم لرئيسهم في

مصيبته، تجمع الناس حول مقر المديرية، وكان ذاك يوم مشهود في مدينة العمارة.

- ولك دويج كيف مات صرخ الأب مستفسرا؟

فأجاب الشرطي هززت اللب فجاءت في يدي سعفاته:

- من الذي مات يا منكود؟

- فسيلة النخل يا سيدي

- من؟

- فرخ النخل يا سيدي.

- سود الله وجهك يا عريف دويج.

وهنا تحول المنظر إلى مسرحية فكاهية، وأصبحت حديث الناس مدة طويلة.

المهم، أخذت فسائل النخل في بستان نديم تشب، وراحت تبشر بطلع قريب.

دخل العراق الحرب مع إيران، وكان القتال سجالا على الجبهات، حتى تطورت الحرب إلى حرب مدن، فتارة تغير طائراتهم علينا، وتنطلق صفارات الإنذار بنذير الشؤم، فيركض الجميع إلى إطفاء الأنوار والاختفاء في الغرف الأكثر أمنا، وتارة تغير عليهم طائراتنا، فتهزج أناشيد «النصر» منصورة يا بغداد!

ثم تطورت الحرب إلى حرب صواريخ أخذت تدك الدور على رؤوس ساكنيها.

كانت موسكو قد علمت نديم النوم عريانا حتى في ليالي الشتاء، وكان قد أطلق لحيته فضاعت (معالم وجهه لم تبق منه إلاّ أنف أكبر من المعتاد وعيون حادة)، وتماشيا مع المودة علق سلسالا من الذهب فوق صدره.

كانت زوجته وبناتهم ينمن أثناء الحرب في غرفة أخرى مجاورة لغرفة نديم، خوفا على الطفلتين، أما ابنه الشاب فكان ينام في غرفته في الطابق الثاني من الدار لوحده.

كان الفصل خريفا، والوقت فجرا عندما اهتزت الدار أثر انفجار مدوي، وكأنهم في مطب هوائي شديد في رحلة فوق (مثلث برمودا)! شعر نديم وكأنه يحوم فوق جسده الممدد وينظر ببلاهة إلى جثمانه المسجى فوق السرير، لا يستطيع تحريك أطرافه، أخذ يصرخ بصوت غير مسموع ربما، مناديا على زوجته والبنات، ولا من مجيب.

كم استغرقت هذه الحالة؟ لا يدري ولكنه في النهاية استطاع أن يعود لوعيه، وبعد أن لسعه هواء بارد نهض يبحث عن ملابسه التي قد تركها ليلة أمس فوق السرير، ولكن أين السرير؟ لقد وجد نفسه

ممددا على الأرض مباشرة، فقد أنهد السرير من تحته، وقف على طوله وراح يتلمس دولاب الملابس، ولكن هذا لم يعد في مكانه أيضا، سار في الظلمة حافي القدمين متحديا شظايا زجاج النافذة الذي غطى أرض الغرفة. غير مباليا بوخز الشظايا وبالدم الذي راح يسيل من قدميه، وبالصدفة فقط عثر على بدله رسمية كان قد اشتراها حديثا من أسواق فرانكفورت الألمانية ذات «السراوين»، فلبسها مباشرة على جسمه العاري.

وقف ينكثت لحيته التي غطاها الغبار، ورائحة البارود تزكم أنفه إلى حد القيء فكان منظره وكأنه واحد من شيوخ الجان، غريب ومرعب.

تفقد أسرته على عجل فوجد الكل معافى، ولكن الشظايا كانت قد مزقت أغطيتهم الثقيلة.

راح يتفقد الدار فلم يجد بعض جدرانها، وكأن الغرف قد أصبحت امتدادا للحديقة أو العكس.

بعد أن اطمأن على أسرته, قفز نديم إلى نصف السلم المتبقي، كون النصف الثاني منه قد جثم على الأرض، فتبعه ابنه بعد أن قفز هو الآخر راكضا لتفقد جيرانه والذين ربطته بهم علاقة حميمة.

كان المنظر مرعبا في الخارج، فقد سقط صاروخ إيراني على

الدار التي تحدهم مباشرة من الخلف، فانهدّت تلك الدار على ساكنيها وترك الصاروخ حفرة يصل قطرها عدة أمتار، ولم ينج أحد من سكان تلك الدار وكانوا عشرة مع أطفالهم.

أما في الدار التي على شماله، فكان الموقف ربما أكثر مأساوية، وقف جارهم وفي يده عصا صغيرة بنبش بها أكداس الخرسانة المسلحة محاولا أخراج أطفاله من تحتها، ويا حسرتي على أطفاله، كانوا بعمر الورود اليانعة، لم يكن الرجل في تلك اللحظة في كامل قواه العقلية، فقد تبلد فكره وغارت عيونه وكأنه يعيش في عالم آخر. وهكذا كان حال الدور المجاورة الأخرى.

لم يهب أحد لنجدة المنكوبين في البداية، غير عمال أجانب أظنهم من اليوغسلاف، كانوا يشيدون مباني في المطار لا يعرف أحد سرها.

جاء أحد هؤلاء مسرعا يسوق حفارّة كبيرة وراح يفتح بواسطتها طريقا لنجدة الضحايا، وليرفع أكداس الجدران والسقوف المهدمة.

لم يكن هناك طريق غير بستان نديم للوصول إلى البيوت المهدمة، وبعد أن أزاحوا السياج الذي يفصل البيوت عن المطار، أخذوا يزيحون الأشجار عن الطريق، كان في بستان نديم سبعين شجرة مثمرة من تفاح وأجاص ورمان وتين وغيرها.

لم يأبه نديم لها وهي تتساقط جثثا هامدة، بل كان يساعد العمال

في اقتلاعها، ولكن عندما جاء دور النخيل راح يبكي ويلطم مع من يلطم على صغاره. بعد أن شاهد فسائله مرمية بين أكداس الخرسانة أصابه القنوط.

بعد أن ارتفعت الشمس في السماء. جاءت فرق من الدفاع المدني والشرطة لتطوق المكان،

كان نديم وغيره من الأحياء يبحثون بين الأنقاض عن كل ما هو عزيز. وبينما كان نديم يفكر في عظم المصيبة التي حلت بهم، حانقا على من جر العراق لهذه الحرب العبثية، اقترب منه مسئول أمن المنطقة، «والأمن في العراق يعني الشرطة السرية سيئة الصيت» اقترب منه سائلا عن أخبار قاسم الذي غادر العراق منذ سنين عدة، مذكرا إياه بوجوب الحضور لدائرة الأمن لرفع تقرير عن قاسم!

لم يتمالك نديم أعصابه عندها فهرع إلى قنينة غاز الطبخ وكانت تزن ربما عشرين كيلوغراما، كان الانفجار قد ألقى بها من المطبخ إلى وسط الحديقة.

رفع نديم تلك القنينة إلى الأعلى دون أن يشعر بثقل وزنها، وأراد أن يهوي بها على رأس ذلك الوغد الذي لم يهزه منظر الأطفال القتلى تحت الأنقاض، ولا البيوت المهدمة، فراح يمارس إرهابه للناس حتى في أسوأ المواقف، لكن مسئول الأمن هذا، وفي اللحظة

الأخيرة زاغ عن قنينة الغاز قبل أن تحطم رأسه.

بعد أن فقد نديم بيته وبستانه وأمنه، وبعد أن قتلوا نخلاته وقتلوا معها أحلامه، قرر الرحيل عن وطن حاول جاهدا أن يبني ويزرع فيه الخير، راح يبحث عن وطن جديد قد تصان فيه كرامة الإنسان قبل كل شيء.

في عام 1996 قصد اللطلاطة مودعا، رافقه في زيارته تلك صديقه سيف الدين الذي كان قد تملكه فضول لا يقاوم في رؤية اللطلاطة، وتلك كانت آخر زيارة لفرد من أسرة سلمان لها.

وصلوا إلى هناك وهم غير متأكدين من أنهم قد وصلوا فعلا إلى المكان الصحيح.

لم يجد نديم في ملاعب طفولته غير أرض منبسطة تناثرت فوقها ظلال النخيل والذي نمى الشوك تحته، تعرّف إلى كل نخلة في بستان سلمان، ولم يجد الدور والمندي وغيرها. لم يجد سوى قبر خاله، رجل الدين الوقور، وربما عصي على اللصوص هدمه، أو ربما خافوا من أن يصيبهم سوء من ذلك. ترحم نديم على خاله وعلى اللطلاطة وأهلها وراح يطوف فيها بخياله فغاص في الزمن السحيق، يوم كانت اللطلاطة عامرة بأهلها.

تصور أن اللطلاطة لازالت قائمة هناك، فراح يدخل بيوتها بيتا

بيتا.

أول بيت دخله في تلك الساعة بيت عمه عاصم، تفقد الأسرة وراح يحيي أفرادها فردا فردا، تذكر كيف زار عمه وعدد من الأطفال في العيد الكبير، في محله الصغير في سوق قلعة صالح، وكيف ظل هذا الرجل الطيب يبحث في كل مكان عن نقود يعطيها (عيدية) للأطفال فلم يجد غير فلسا واحدا كان يستعمله في الميزان كوحدة وزن، فالفلس العراقي كان يزن نصف مثقال.

وتذكر كيف كانت فرحة الصغار عارمة بهذا الكنز، فلم يكونوا قد عرفوا النقود بعد والفلس في ذاك الزمان كان يمكن فيه شراء بعض الحلوى.

ترك بيت عمه ودخل بيت عمه الثاني والذي كان قد اقترن بامرأتين، وتذكر كيف كانت زوجاته يتنافسن على إرضائه، وتذكر ذلك الصحن النحاسي الذي كنّ يضعن فيه الرز المطبوخ والذي «يفرقع» بزبدة ذائبة وصحن من الحليب الرائب، وكيف كان المرحوم يضع اللبن فوق الرز ويخلطه ويقسم ما فيه إلى أربعة أقسام ليصبح كل قسم لقمة واحدة فيزدردها وهكذا تنتهي وجبة العشاء بأربعة لقم!

تذكر نديم إلى اليوم كيف كان هذا الرجل مضرب المثل في القوة الجسدية، فكان يقيم الرهان مع صحبه ويتحدى أشداءهم في سحب خوصة يقطعها من سعفة النخلة، ويضعها بين إليتيه. فلم يقدر أحد

على سحبها بعد أن يصك عليها.

تذكر الموقد الذي كان يحتل باب دار سمير الحداد، وكيف كان ذاك الشاب المفتول العضل، يضع القصب فيه فيتحول إلى فحم يستخدمه في موقده في المدينة حيث يصنع الفؤوس والمناجل وغيرها من أعمال الحدادة الشاقة.

ثم عرجّ إلى بيت رزق وتذكر (الهاون) الأحمر المصنوع من الحجر والذي يطحنون فيه حبوب البن بعد أن يقلبوها طويلا في مقلات على نار من أغصان التوت أو كرب النخيل. وتذكر كيف حدثت هناك مشادة ذات يوم، فضرب أحدهم ذلك الرجل بيد الهاون فكسر أنفه وراح دمه يسيل، ولم تنته المشكلة إلا بعد أن تدخل الشيوخ وأجبروا المعتدي على تعويض المتضرر بأن يزوجه إحدى بناته.

دخل بيتا آخر وراح يبحث في ذاكرته عن ذلك الجدار الطيني الذي قسم مراح البقرة إلى قسمين ليخبئوا في أحدها ما غلي ثمنه، بعد أن سمعوا بأن القرية ستتعرض للتفتيش والنهب. وتذكر كيف راحت سميرة تركض خلف دجاجاتها الثلاث، وبعد جهد جهيد أمسكت بها وأرادت أن يحفظوها لها في تلك الغرفة السرية، فهن أغلى ما تملك. وكيف جاءت كل عائلة بقطعة تظنها هي الأثمن والأهم. فهذه جلبت (كاروك[1] الطفل) والأخرى خافت على (المصخنة)[1] وهلم جراً.

---

[1] الكاروك: مهد للطفل على شكل أرجوحة من الخشب.

وظهر لاحقا أن التفتيش هو حملة للتطعيم ضد الكوليرا. فهدموا الجدار ثانية واسترجعت كل عائلة كنزها من ذلك المخبأ.

استعاد في ذاكرته مهرجان (السبيتي) :

حيث كان الأطفال واليافعين من الأولاد والبنات في اللطلاطة يقيمون مهرجان لا يذكر مناسبته، ولكنه تذكر كيف يختارون أحدهم ومن ذوي البطون الكبيرة. فيغطون رأسه بعباءة، ويرسمون على بطنه وجها فيه فم وعيون وأنف بسخام القدور، ويدورون معه من بيت إلى بيت يهزجون ويصفقون مرددين:

سبيتي يمه.. يمه

عنده بطن حقه قطن

سبيتي يمه.. يمه

.....

ثم زار مكان المندي وكان عامراً بالأفراح، يبحث بمخيلته عن شجرة الرازقي التي كانت تمتد من الطارمة وحتى ديوانية المندي. حتى أنه راح يستنشق عطر زهورها البيضاء. باحثا عن ورد الجوري العطر الذي اشتهرت به العمارة والذي كان يحيط بحوض الصباغة.

---

[1] المصخنة إناء من النحاس الأحمر يستخدم في نقل الماء.

وتذكر خاله المدفون أمامه كيف كان يستنسخ الكتب الدينية على خشبة قسمها بخيوط من القطن بشكل أفقي متساوي كي تأتي السطور متساوية أيضا. وراح يستذكر الحبر الذي كان يعده خاله خصيصا لكتابة تلك الكتب الدينية وكان حبر أسود لماع (يدعى «ديوثا» في اللغة المندائية) فكان يمزج الغراء المستخرج من السمك بماء النهر ويتركه إلى أن يذوب، ثم يتركه يغلي إلى درجة التبخر ولمدة ستة أيام. وفي اليوم السابع يسحقه ويخلطه بمسحوق الفحم بنسبة مثقال واحد من الفحم بخمسة وعشرين مثقالا من الغراء ويتركه لمدة أربعة أو خمسة أيام، ثم يمزجه بالماء إلى أن يصبح عجينة لينة ناعمة فيغليه على النار مرة أخرى ليصير على شكل بلورات، تمزج بماء النهر (يردنه) عند الاستعمال، ثم يتلوا على ما كتب صلاة التسليم (أسوثه ملكه).

أما ابن خاله إبراهيم والذي لم ينج أحد من مقالبه فهو قصة لوحده. تذكر كيف أن إبراهيم ألبس ذات مرة إبن عمه الأعرج عباءة نسائية وخبأه في البستان وراح يدعو أبناء عمومة الشباب للتحرش بها.

أفاق نديم من ذهوله على صوت صديقه سيف الدين وهو يخاطب مجموعة من الشباب أحاطت به وكأنه يؤدي خطبة الجمعة.

صور نديم تلك الآثار وودعها وفي قلبه حسرة على فراقها، حتى بعد أن أصبحت بستان شوك لا غير.

وكما ودع قبور المندائيين في مقبرة اللطلاطة، عاد إلى بغداد ليودع قبورهم في أبو غريب ومنها قبر صلاح أخيه الشاب وقبر أمه حيهن.

وها أنت تراه الآن ينوح على وطن ضاع، وضاع معه حلم العودة لأيام الصبا، ولطلاطة ضاعت وظل نخيلها يبحث عن من يلقح طلعه.

وضاعت أيضا لطلاطته في بغداد فلا يعرف ماذا حلّ ببستانه هناك ومن يسكن داره اليوم، وأية مليشيا تحتله.

ولا أمل له بأن العراقي سيعيش ذات يوما كباقي البشر ما دامت تحكمه وتتحكم به العمائم اليوم.

عدت بعد أيام بصيدي الثمين إلى سيف الدين الذي عاد إلى ايطاليا ليقضي أوقاته على شاطئ سردينيا الرائع ولم يترك نظارته إلا أنه أبدل السيجار بغليون قمعي الشكل. وراح يتنقل بين سيدات تكاد معالم الشباب تختفي من وجوههن الجميلة، لكي أضع معه اللمسات الأخيرة للطلاطة، وهناك سمعت بنعي نديم،فقد أصابته نوبة قلبية بعد سفري من عنده بيومين ولم تمهله فقضى نحبه وهو في الطريق إلى المستشفى.

لم تكتحل عيناه برؤية قصته التي سطرت في هذا الكتاب،

وتخليدا لذكراه حاولت طباعة تلك القصة وإخراجها بشكل يليق بذلك الرجل غير العادي.

وجدت من الواجب نشر قصة نديم بدون رتوش، فشكرا لكل من ساعدني في ظهور «قصة اللطلاطة» بهذا الشكل وأخص هنا رفيقة دربي كوثر الشيخ.و صديقي سيف الدين العاني الذي دوّن تلك الذكريات بصبر وخصني بها.

عبد الإله السباهي
الدانمارك 2010

للكاتب

- كشف الأسرار عن سحر الأحجار يبحث في الأحجار الكريمة وأسرارها طبعته ونشرته دار النمير في دمشق.
- أولاد المهرجان مجموعة قصص قصيرة.
- مغامرات البارون منهاوزن مجموعة من قصص الأطفال واليافعين من الأدب الألماني الكلاسيكي مترجمة عن الروسية (طبعة ثانية).
- الأمير الصغير للكاتب الفرنس انطوان دي سانت أكزوبري مترجمة عن الروسية طبعتها ونشرتها دار ثقافة الطفل في بغداد في أواخر القرن الماضي.

جميع الحقوق الإلكترونية محفوظة لموقع موسوعة العيون المعرفية

عبد الإله السباهي

اللطلاطة

القصة تتحدث عن أول قرية عاشت فيها مجموعة من سكان العراق القدماء (**المندائيين**) في أوائل القرن العشرين. وفيها استعراض لبعض عاداتهم، وبعض طقوسهم وطريقة عيشهم يغطي فترة من تاريخ العراق الحديث.

The story is about the first village where the ancient inhabitants of Iraq lived (**Mandaeans**) In the early twentieth century. It includes a review of some of their habits, traditions and their life style which takes over a period of the modern Iraqi history.

دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ✉ ٥١٧٥ ☎ ٢٢٢٦٢٠٧

البريد الإلكتروني: annameer@scs-net.org

زوروا موقعنا: http://www.alnameer.com

للمراسلة: ba_kastantin@hotmail.com

D. BY. Shadi Al. nissani